لغة القرآن

فضلها ومكانتها ووجوب تعلّمها

أحمد فتح الله الشيخ

دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني 2019

لغة القرآن

أحمد فتح الله الشيخ

دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني

البريد الإلكتروني

kesasandhekayatpub@gmail.com

موقع الدار

https://kesasandhekayatpub.blogspot.com/

للتواصل عبر ماسنجر صفحة الدار

m.me/kesasandhekayat

فريق عمل الدار

أ. رمضان سلمي برقي

أ. حسن كشاف

أ. هشام وهبي

العنوان: لغة القرآن

النوع الأدبي: بحث وتحقيق

المؤلف: أحمد فتح الله الشيخ

المُدقق اللُغوي: الكاتب بنفسه

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج الفني: فريق عمل الدار

تصميم الغُلاف: فريق الدار

سنة النشر: 2019

الحالة: حصريّاً

رقم الطبعة: 1

رقم الكتاب بالدار: 27

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني2019

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الموقع الصفحة الجروب

الفهرست

كلمة شكر وتقدير..... ٩
مقدمة..... ١١
أهمية اللغة العربية..... ١٢
سؤال وجوابه:..... ١٤
من أقوال السلف في أهمية اللغة العربية:..... ١٥
أهمية اللغة العربية للمفسِّر والمحدث:..... ٢٧
ومما يجب فهمه بالنسبة للمفسر لكتاب الله ما يلي:..... ٢٩
همية العربية في فهم الحديث:..... ٣٢
أهمية اللغة العربية للفقيه:..... ٣٣
تنبيه:..... ٣٤
مميزات اللغة وخصائصها:..... ٣٨
شهادة في حق العربية..... ٤٤
أجمل ما قيل عن اللغة العربية..... ٤٧
سؤال وجوابة:..... ٥٠
سمات اللغة العربية..... ٥١
الإيجاز والاختصار..... ٥٣
اللغة العربية والقرآن الكريم..... ٥٦
خصائص اللغة العربية ومميزاتها..... ٦٠
استكمال لخصائص اللغة العربية:..... ٦١
العام من حيث شمولُه لأفراده:..... ٦٥
أهمية اللغة العربية في فهم الإسلام..... ٧١
الخلفاء والأمراء يحذرون اللحن ويخافون أن يتهموا به لشناعته:.... ٧٧
تأثير اللغة العربية على الثقافة الإسلامية..... ٨٩
أهمّيَّة اللّغة:..... ٩٠
الحرب ضد الإسلام واللغة..... ٩٢

اللغة العربية وأهميتها في رواية الحديث وفهمه.....٩٣
اللغة العربية جمال ومقومات.....٩٩
عَوْلَمة اللغة:..... ١٠١
ختاماً..... ١٠٦
الخاتمة..... ١١٤
المراجع والمصادر..... ١١٥
نبذة عن المؤلِّف..... ١٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء:

إلي النبي العربي محمد صلي الله عليه وسلم...

إنَّ مَن أحبَّ الله، أحبَّ رسوله العربيَّ -صلَّى الله عليه وسلَّم- ومَن أحبَّ رسوله العربي، أحبَّ العربَ، ومَن أحبَّ العرب، أحبَّ اللُّغة العربية، ومَن أحبَّ اللُّغة العربية عُنِي بها، وثابر عليها، وصَرَف همَّه إليها، فإنَّ العرب خيرُ الأمم، والعربية خيرُ اللُّغات والألسنة.

كلمة شكر وتقدير

أحمد الله أولاً وأشكره وأثني عليه أن وفقني لطلب العلم الشرعي أشرف العلوم وعلي فضله وكرمه عليّ بإتمام هذا الكتاب. ومن تمام شكر شكر الله عزوجل أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلي:

– فضيلة الأستاذ الدكتور /أحمد خالد الجارحي. أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية بجامعة الأزهر الشريف. الذي قَبِلَ الإشراف والمراجعة لهذا الكتاب ولم يألَ جهداً في نصحي وتوجيهي ولم يبخل عليّ بجهده ووقته رغم كثرة مشاغلة وكان راعياً لهذا الكتاب من أوله إلى أخره.

– فضيلة الدكتور/أحمد بُهدر. مؤسس سلسلة لوح وقلم لتقديمه لي التوجيهات العلمية القيمة وإمدادي بالمراجع التي ساعدتني في كتابة هذا الكتاب ليخرج بصورة حسنة مقبولة.

*كل من أعاني وشجعني وأشار عليّ ونصحني.

ولا يفوتني أن أتقدم بجزيل الشكر إلي كل من سيقدم توجيهات يستقيم بها ما أعوجّ من هذا الكتاب ليشتدّ عوده. عملي في هذا الكتاب، يمكن أن ألخص عملي في هذا الكتاب علي النحو التالي:

– عزو الأيات والأحاديث الواردة في هذا الكتاب إلى مصادرها الصحيحة من الكتاب والسنه.

– التعليق علي الكلمات الغريبة وشرح معناها من كتب اللغة وكتب غريب الحديث.

– الإتيان بمعظم أقول العلماء والأئمه من سالف الأزمان بما يخدم الكلام بموضوع الكتاب.

– تعليقات شخصية لي علي بعض ما ورد في الكتاب بما يناسب مواضعها.

– ذكر اسئله لبعض المشككين في سمو اللغة عربية(لغة القرآن الكريم) والرد عليها باسلوب سهل ومبسط.

– ذكر وايراد شهادات غير العرب من علماء ومستشرقين وأدباء في لغة القرآن الكريم لبيان فضلها ومكانتها وأننا نتكلم لغة ليست كأي لغة عابرة بل هي أسمي اللغات وأشرفها علي الإطلاق.

وعلي الله قصد السبيل.

الفقير إلي عفو ربه

أحمد فتح الله الشيخ

خادم الإسلام

مقدمة

الحمد لله وكفي وصلاه وسلاما على عباده الذين اصطفي لاسيما نبيه المجتبى وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قديرإلهٌ عزَّ مَن اعتز به فلا يضام وذلَّ مَن تكبر عن أمره ولقي الآثام وأشهد أن سيدنا وحبيبنا وشفيعنا محمدًا عبد الله ورسوله، وصفيه من خلقه وحبيبه، خاتم أنبيائه، وسيد أصفيائه،المخصوص بالمقام المحمود ، في اليوم المشهود،الذي جُمع فيه الأنبياء تحت لوائه و على آلة وأصحابه ومن سار على نهجه وتمسَّك بسنته، واقتدى بهدية، واتَّبعهم بإحسان إلى يوم الدين، ونحن معهم يا أرحم الراحمين، ثم أما بعد:

بشراكم يا أمه المختار فييوم القيامة جنة وحريرا**

فُضلتم حقاً بأشرف مرسلخيرٌ البرية باديا وحضورا**

صلى عليه الله ربى دائماًمادامت الدنيا وزاد كثيراً.**

وبعد:

تعدّ اللغة العربية من بين أكثر لغات العالم شيوعاً، ولكنّها تتضمن العديد من اللهجات، ونادراً ما نجد شخصاً يُتقن التحدّث باللغة العربية الفصحى، بالرغم من أنّها ليست صعبة للغاية، إلا أننا لم نعتد على استخدامها في حياتنا اليوميّة.

أهمية اللغة العربية

قال الله تعالى في كتابه الكريم: "إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُم تَعْقِلُونَ"[1] إنّ اللغة العربيّة الفصحى تعدّ من أقدم اللغات، وقد نبعت أهمية اللغة العربية بسبب نزول آخر معجزة في الأرض وهي القرآن الكريم الّذي أُنزِل على نبيّ الله تعالى مُحمّداً (عليه الصلاة والسلام)، وقد عرف العرب بحبّهم للغة العربية منذ العصر الجاهلي الذي اشتهر فيه العرب بالتباهي بمدى معرفتهم لقواعد اللغة العربية، وتطبيق نواحيها الجماليّة خاصّةً في نظم الشعر الجاهلي.

واللغة العربيّة هي مصنّفة بين أصعب خمس لغات في العالم، وتعرّف اللغة العربية بكثرة وجود القواعد اللغويّة والإملائيّة والنحوية فيها، وعلى الرّغم من ذلك فإنّ العرب قد أبدعوا في التعمّق في لغتهم، لذلك فإنّ الله تعالى أنزل القرآن باللغة العربية الفصحى، والهدف منه تحدّي العرب الّذين برعوا بلغتهم بأن يأتوا بمثله، ومن هنا تكمن الأهمية الكبرى للغة العربية.

ولا يخفى على ذي لُبٍّ ما للغةِ العربية من أهميةٍ عظمى؛ في كونها لغة القرآن الكريم والسنة المطهرة، وكونها جزءًا من ديننا، بل لا يمكنُ أن يقومَ الإسلام إلا بها، ولا يصح أن يقرأَ المسلم القرآنَ إلا بالعربية، وقراءة القرآن ركنٌ من أركانِ الصلاة، التي هي ركن من أركانِ الإسلام. وتزداد أهميةُ تعلمِ اللغة العربية حين بَعُد الناس عن الملكةِ والسليقة اللغوية السليمة؛ مما سبَّبَ ضعف

[1] يوسف (٢)

الملكات في إدراكِ معاني الآيات الكريمات؛ مما جعل من الأداةِ اللغوية خيرَ معينٍ على فهم معاني القرآن الكريم والسنة المطهرة، وقد نبَّه ابنُ خلدون على ذلك بقوله:

"فلمَّا جاء الإسلامُ، وفارقوا الحجاز... وخالطوا العجمَ – تغيرت تلك الملكةُ بما ألقى إليها السَّمعُ من المخالفاتِ التي للمستعربين من العجم؛ والسمع أبو الملكات اللسانية؛ ففسدت بما أُلقي إليها مما يغايرها لجنوحِها إليه باعتبارِ السمع، وخشي أهلُ الحلوم منهم أن تفسدَ تلك الملكة رأسًا بطولِ العهد؛ فينغلق القرآنُ والحديث على الفهوم، فاستنبطوا من مجاري كلامِهم قوانين لتلك الملكة مطَّردة شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائرَ أنواعِ الكلام، ويلحقون الأشباه منها بالأشباه" [٢]

ومما يدلُّ أيضًا على أهميةِ اللغة العربية في فهمِ الكتاب العزيز حرصُ العلماءِ في العصورِ المتقدمة على التأليفِ في إعراب القرآن ومعانيه، بل إنَّ بعض هذه الكتبِ منها ما يُسمى بـ"معاني القرآن"؛ مما يوحي بأهميةِ الإعراب في فهم المعاني، والدليل على ذلك ما جاء في" كشفِ الظُّنون"؛ لحاجي خليفة، حين عَدَّ إعراب القرآن (علمًا من فروعِ علمِ التفسير .

واللغة عمومًا – أي لغة كانت – لها ثلاث وظائف، هي:

- أنَّ اللغةَ هي الركنُ الأول في عمليةِ التفكير.
- وهي وعاءُ المعرفة.
- وهي الوسيلةُ الأولى للتواصلِ والتفاهم والتخاطب، وبثِّ المشاعر والأحاسيس.

وهذا القدرُ من أهميةِ اللغة مشتركٌ بين بني الإنسان وبين اللغات كافة في كلِّ مكان وزمان، إلا أنَّ اللغة

[٢] كتاب المقدمة (ص ٤٢٦).

العربية امتازت عن سائرِ لغات البشر بأنها اللغةُ التي اختارها الله – سبحانه وتعالى – لوحْيه؛ لما تمتازُ به من مميزات.

وسنذكر في هذه الأسطر المختصره همية اللغة العربية، ويمكن أن نلخصَ أهميتها بالنِّقاط التالية:

أولاً: أن البيان الكامل لا يحصل إلا بها: ولذا لم ينزل القرآنُ إلا باللغةِ العربية؛ قال – تعالى :– ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾[٣] ، فدلَّ ذلك على أنَّ سائر اللغات دونها في البيان.

ولقد أوضح هذا المعنى أبو الحسين أحمد بن فارس المتوفى سنة (٣٩٥ هـ)، حيث قال: "فلما خَصَّ – جل ثناؤه – اللسانَ العربيَّ بالبيانِ، عُلِمَ أن سائر اللغات قاصرةٌ عنه، وواقعة دونه[٤]"

سؤال وجوابه:

وقد يقول قائل: قد يقعُ البيان بغيرِ اللسان العربي؛ لأنَّ كلَّ مَنْ أفهمَ بكلامِه على شرط لغته، فقد بيَّن؟

فيُقال له: إن كنتَ تريد أنَّ المتكلِّم بغير اللغة العربية قد يُعْرِبُ عن نفسِه حتى يُفْهِمَ السامعَ مرادَه، فهذا أخسُّ مراتب البيان؛ لأنَّ الأبكم قد يدلُّ بإشاراتٍ وحركات له على أكثر مراده، ثم لا يسمَّى متكلمًا، فضلاً عن أن يُسمَّى بَيِّنًا أو بليغًا، وإن أردت أنَّ سائر اللغات تُبِينُ إبانةَ اللغة العربية، فهذا غَلط، وقد بيَّن السيوطي – رحمه الله – في" المزهر"وجهَ الغلط قائلاً: "... لأنَّا لو احتجنا إلى أنْ نعبر عن السيفِ وأوصافه باللغةِ الفارسية، لما أمكننا ذلك إلا باسمٍ واحد؛ ونحن نذكرُ للسيفِ بالعربية صفاتٍ كثيرة، وكذلك

[٣] [الشعراء: ١٩٥]
[٤] الصاحبي في فقه اللغة ج١ (ص٤).

الأسد والفرس وغيرهما من الأشياءِ المسميات بالأسماء المترادفة، فأين هذا من ذاك؟! وأين سائرُ اللغات من السَّعةِ ما للغةِ العرب؟! هذا ما لا خفاءَ به على ذي نُهية[٥]"

ثانيًا: أن اللغة العربية تُعد مفتاح الأصلين العظيمين؛ الكتاب والسنة: فهي الوسيلةُ إلى الوصولِ إلى أسرارهما، وفهم دقائقهما، وارتباط اللغة العربية بهذا الكتابِ المُنَزَّل المحفوظ جعلها محفوظةً ما دام محفوظًا، فارتباطُ اللغةِ العربية بالقرآن الكريم كان سببًا في بقائها وانتشارها، حتى قيل: لولا القرآن ما كانت عربية؛ ولهذا السبب عني السَّلفُ بعلومِ اللغة العربية، وحثُّوا على تعلمِها، والنَّهل من عبابها، وإليك بعض أقوالِهم التي تدلُّ على أهميةِ العربية:

من أقوال السلف في أهمية اللغة العربية:

1- يقول عمرُ بن الخطاب – رضي الله عنه –: "تعلَّموا العربيةَ؛ فإنها من دينِكم، وتعلَّموا الفرائضَ؛ فإنها من دينكم[٦]"

2-وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري – رضي الله عنهما –: "أمَّا بعد، فتفقهوا في السنةِ، وتفقهوا في العربية، وأَعْرِبُوا القرآنَ فإنه عربي[٧]"

وفي توجيهِ عمر هذا أمران:

---

[٥] المزهر ج١(ص٣٢١).
[٦] مسبوك الذهب في فضل العرب وشرف العلم على شرف النسب ج١ (ص٩)، وينظر: إيضاح الوقف والابتداء؛ تأليف أبي بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري، تحقيق محيي الدين عبدالحميد رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٥هـ، ١٩٧١م
[٧] المصدر السابق.

الأول: الدعوةُ إلى فقهِ العربية.

والثاني: الدعوةُ إلى فقهِ الشَّريعة.

وبيَّن شيخُ الإسلام ابن تيمية سببَ قول عمر: "تفقهوا في السنةِ، وتفقهوا في العربية"؛ حيث قال: "لأنَّ الدِّينَ فيه فقهُ أقوال وأعمال، ففقه العربية هو الطريقُ إلى فقه الأقوال، وفقه الشريعة هو الطريقُ إلى فقه الأعمال"٨.

٣- وقال عبدالله بن عباس - رضي الله عنهما -: "ما كنتُ أدري ما معنى:

﴿ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأنعام: ١٤] حتى سمعتُ امرأةً من العربِ تقول: أنا فطرتُه؛ أي: ابتدأته"٩، وقال: "إذا خَفِيَ عليكم شيءٌ من القرآنِ، فابتغوه في الشِّعرِ؛ فإنَّه ديوانُ العرب"١٠

٤- وأنشد المبرِّد:

النَّحْوُ يَبْسُطُ مِنْ لِسَانِ الْأَلْكَنِ

وَالْمَرْءُ تُكْرِمُهُ إِذَا لَمْ يَلْحَنِ

وَإِذَا طَلَبْتَ مِنَ الْعُلُومِ أَجَلَّهَا

فَأَجَلُّهَا عِنْدِي مُقِيمُ الْأَلْسُنِ ١١

٨ اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ج١ (ص٤٢٥).

٩ الإحكام في أصول القرآن؛ لابن حزم، ج١ (ص١٧)، والأحكام؛ للآمدي ج١ (ص٥١).
١٠ تفسير الألوسي، ج٢١ (ص١٩٢).
١١ البيتين في الوافي بالوفَيَات؛ للصفدي، ج٣ (ص١٦٨) منسوبتان لإسحاق بن خلف الشاعر المعروف بابن الطبيب من شعراء المعتصم.

يعني: العلم الصحيح هو مقيم الدين، مقيم العبادة، ودليله أنَّ نبي الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – بقي عشر سنين بمكة لا يدعو إلا إلى علم العقيدةِ، الذي هو أساسُ كل علم وأصل العلوم، وبقيةُ العلومِ تتفرَّعُ عنه، فعلمُ العقيدة والشريعة هو أهمُّ ما يجب على المسلم أن يتعلَّمه.

قال الشيخ بكر أبو زيد: "والجلالة هنا – يعني في قوله: فأجلُّها – نسبيةٌ إلى علومِ الآلة، والله أعلم[١٢]"

5–وقال الشعبي:" النحو كالملحِ في الطعام لا يُستغنى عنه"، وروى أبو نعيم في رياضةِ المتعلِّمين عن ابن شبرمة، قال" :زين الرِّجال النحو، وزين النِّساء الشَّحم."

٦– وقال شيخُ الإسلام ابن تيمية: "إنَّ الله لما أنزل كتابَه باللسان العربي، وجعل رسولَه مبلغًا عنه الكتاب والحكمة بلسانه العربي، وجعل السَّابقين إلى هذا الدين متكلِّمين به، ولم يكن سبيل إلى ضبط الدِّينِ ومعرفته إلا بضبط هذا اللسان، صارت معرفته من الدِّين، وأقرب إلى إقامةِ شعائر الدين..."[١٣]

وفي الكلامِ السَّابقِ لشيخ الإسلام ما يدلُّ على أنَّ بين اللغة العربية والعقيدة الإسلامية ارتباطًا وثيقًا، لا يماثله رباطٌ آخر في أي من المجتمعاتِ القديمة والمعاصرة؛ لأنَّ اللغة العربية هي لغةُ الإسلام، ولغة كتابه العزيز، ولغة رسوله محمد – صلَّى الله عليه وسلَّم – ولذا فإن الاهتمامَ والعناية بها إنما هو استكمال لمقوم من مقومات العقيدة الإسلامية، التي نجتمعُ جميعًا على إعزازِها، والدعوة إليها.

وانطلاقًا من هذا المفهوم، فإنَّ تعلم اللغة العربية والاهتمام بها ليس مهنة تعليمية، أو قضية تعليمية فحسب؛ وإنما هو قضية عقدية، ورسالة سامية نعتز بها.

7–ويقول الرازي:

[١٢] حاشية كتاب حلية طالب العلم (ص٢٠١).
[١٣] مجموع فتاوى ابن تيمية، ج٨ (ص٣٤٣).

"لما كان المرجعُ في معرفة شرعِنا إلى القرآنِ والأخبار، وهما واردان بلغةِ العرب ونحوهم وتصريفهم، كان العلم بشرعنا موقوفًا على العلم بهذه الأمور، وما لا يتمُّ الواجبُ المطلق إلا به – وكان مقدورًا للمكلف – فهو واجب"١٤، وبيَّن الإسنوي في الكوكبِ الدري علةَ هذا الكلام بقوله: "لأنَّ علمَ أصول الفقه إنما هو أدلة الفقه، وأدلةُ الفقه إنما هما الكتابُ والسنة، وهذان المصدران عربيان، فإذا لم يكن الناظرُ فيهما عالمًا باللغةِ العربية وأحوالها، محيطًا بأسرارها وقوانينها، تعذر عليه النَّظرُ السليم فيهما، ومن ثَمَّ تعذَّرَ استنباط الأحكام الشرعية منهما١٥"

9–ويقول الشافعي" :لا أُسأل عن مسألةٍ من مسائل الفقه، إلا أجبت عنها من قواعدِ النحو"١٦، وهذا يدلُّ على تمكنِه – رحمه الله – في العربية، وقال أيضًا" :ما أردت بها – يعني: العربية – إلا الاستعانةَ على الفقه"١٧، وقال" :من تبحَّرَ في النحوِ، اهتدى إلى كلِّ العلوم"،وتُنسبُ هذه المقولةُ أيضًا للكسائي.

10–واجتمع الكسائي ومحمد بن الحسن الشيباني صاحب الإمام أبي حنيفة، فقال الكسائي:" من تبحَّر في علمِ النحو، اهتدى إلى سائر العلوم، فقال له محمد: ما تقولُ فيمن سها في سجودِ السهو، هل يسجد مرة أخرى؟ قال: لا، قال: لِمَ ذا؟ قال: لأنَّ النحاة يقولون: المصغَّر لا يُصغر، قال محمد: فما تقول في تعليقِ العتق بالملك؟ قال: لا يصحُّ، قال: لِمَ؟ قال: لأنَّ السيل لا يسبق المطر١٨" ومما يدلُّ أيضًا على اهتمام السَّلفِ بالعربية أنَّ الكسائي – رحمه الله – تعلَّم النحوَ وقد كبر سنُّه، وبيَّن

١٤ المحصول في علم أصول الفقه؛ للرازي ١ (٢٧٥).
١٥ انظر: الكوكب الدري؛ للإسنوي (ص٤٥).
١٦ شذرات الذهب؛ لابن العماد الحنبلي (٢٣١).
١٧ سير أعلام النبلاء؛ للذهبي (١٧٥).
١٨ سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، ج٢ (ص٢٠١) وغيره.

العصامي – رحمه الله – في "سمط النجوم العوالي في أنباءِ الأوائل والتوالي" سببَ ذلك؛ حيث قال: "وسببه أنه مشى يومًا حتى أعيا، فجلس وقال: عييتُ، فقيل له: لحنتَ، قال: كيف؟ قيل: إن كنت أردت التَّعبَ، فقل: أعييت، وإن كنت أردت انقطاع الحيلة، فقل: عييت بغيرِ همز، فأنف من قولِهم: لحنت، واشتغل بالنحو حتى مهر وصار إمام وقته، وكان يؤدب الأمين والمأمون، وصارت له اليد العظمى، والوجاهة التامة عند الرشيدِ وولدَيْه، وتوفي محمد بن الحسن والكسائي في يومٍ واحد سنة سبع وثمانين ومائة، ودُفِنا في مكان واحد، فقال الرشيد: ها هنا دفن العلمُ والأدب، وقصة الكسائي مع سيبويه في مسألة: فإذا هو هي، أو إياها، شهيرةٌ لا نطولُ بذكرِها"١٩

ولذا قال الشافعي: "من أراد أن يتبحرَ في النحوِ، فهو عيال على الكسائي"٢٠

11–والجرمي يقول :"أنا منذ ثلاثين سنة أفتي النَّاسَ في الفقهِ من كتابِ سيبويه"٢١، فلمَّا بلغ المبردَ هذا الكلامُ قال: "لأنَّ أبا عمر الجرمي كان صاحبَ حديث، فلما عرف كتابَ سيبويه تفقَّه في الحديث؛ إذ كان كتاب سيبويه يُتعلَّم منه النَّظرُ والتفسير٢٢"

12–وقال محمد بن الحسن: "خلَّف أبي ثلاثين ألف درهم، فأنفقتُ نصفَها على النحوِ بالري، وأنفقتُ

---

١٩ ذكر محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي - رحمه الله تعالى - في الآدابِ الشرعية ج٢ (ص٢١٩) هذه القصة، وسنوردها مع شيء من التصرف بالزيادة والحذف والترتيب: "لما ورد سيبويه إلى العراق شق أمره على الكسائي، فأتى جعفر بن يحيى والفضل بن يحيى فقال: أنا وليكما وصاحبكما، وهذا الرجل قد قدم ليذهب محلي، قالا: فاحتمل لنفسك فسنجمع بينكما، فجُمعا عند البرامكة، وحضر سيبويه وحده، وحضر الكسائي ومعه الفراء وعلي الأحمر وغيرهما من أصحابه، فسألوه كيف تقول: كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور، فإذا هو هي أو هو إياها؟ فقال: أقول: فإذا هو هي، فقال له: أخطأت ولحنت، فقال يحيى: هذا موضع مشكل فمن يحكم بينكم؟ قالوا: هؤلاء الأعراب بالباب، فأدخل أبو الجراح، وهو عربي خالص لا يشوب كلامَه شيء من كلام أهل الحضر، وكان الأمين شديد العناية بالكسائي لكونه معلمه، فقال له: نريدُ أن تقول كما قال الكسائي، فقال: إن لسائي لا يطاوعني على ذلك فإنه ما يسبق إلا إلى الصواب، فقرروا معه أن شخصًا يقول: قال سيبويه كذا وقال الكسائي كذا، فالصواب مع من منهما؟ فيقول العربي: مع الكسائي، فقال: هذا يمكن، فانصرم المجلس على أن سيبويه قد أخطأ وحكم عليه، فأعطاه البرامكة وأخذ له من الرشيد وبعث به إلى بلدة، فيقال: إنه ما لبث إلا يسيرًا ثم مات كمدًا، قال علي بن سليمان: وأصحاب سيبويه إلى هذه الغاية لا اختلاف بينهم أن الجواب على ما قال سيبويه، وهو: فإذا هو هي، وهذا موضع الرفع"، وهذه القصة تدل على شدة اهتمامهم باللغة العربية - رحمهم الله جميعًا.

٢٠ العبر في خبر من غبر، ج١ (ص٥٦).

٢١ تفسير القرطبي، ج١ (ص٢١).

٢٢ تفسير القرطبي، ج١ (ص٢١).

الباقي على الفقه"٢٣، وقال عنه الشَّافعي: "لو أشاء أن أقول: تنزل القرآن بلغةِ محمد بن الحسن لقلتُ لفصاحتِه، وقد حملت عنه وقر بختي٢٤"

13-بل أُثر عن أبي الريحان البيروني قوله" :لأنْ أُشتم بالعربيةِ خير من أُن أمدحَ بالفارسية"٢٥، وهذا يدلُّ على حبِّهم للعربية، واعتزازهم بها.

14-والفارابي يبرِّر مدحَه العربية بكونها من كلامِ أهل الجنَّة؛ حيث يقول: "هذا اللسانُ كلامُ أهل الجنة٢٦، وهو المنزَّه بين الألسنةِ من كلِّ نقيصة، والمعلَّى من كلِّ خسيسة، والمهذَّب مما يُسْتَهجن أو يُسْتَشْنع٢٧"

رابعًا: أن اعتياد التكلم باللغة العربية يؤثِّر في العقلِ والخلق والدين: يقول شيخُ الإسلام ابن تيميَّة – رحمه الله تعالى –: "اعلم أنَّ اعتياد اللغةِ يؤثر في العقلِ والخلقِ والدِّينِ تأثيرًا قويًّا بينًا، ويؤثر أيضًا في مشابهةِ صدرِ هذه الأمَّةِ من الصَّحابةِ والتابعين، ومشابهتهم تزيد العقلَ والدينَ والخلقَ٢٨"

وقال أيضًا" :معلومٌ أنَّ تعلمَ العربية وتعليمَ العربية فرضٌ على الكفاية، وكان السَّلفُ يؤدِّبون أولادَهم على اللَّحنِ، فنحن مأمورون أمرَ إيجابٍ أو أمرَ استحبابٍ أن نحفظَ القانون العربي، ونُصلح الألسن المائلة عنه،

---

٢٣ العبر في خبر من غبر، ج١ (ص٥٦).
٢٤ نفس المصدر السابق.
٢٥ وقفة مع بعض الترجمات الإنجليزية لمعاني القرآن الكريم؛ للدكتور وجيه حمد عبدالرحمن ج١ (ص٦).
٢٦ اختلف في لغة أهل الجنة ما هي؟ وذلك بسبب اختلاف المفسرين في قوله - سبحانه وتعالى - في وصف نساء أهل الجنة مادحًا إياهنَّ: (عُرُبًا أَتْرَابًا) [الواقعة: ٣٧] فقد اختلف المفسرون في معنى: (عربًا) على أقوال كثيرة، وقد قال ابن كثير في تفسيره (٧: ٥٣٤): "عن ابن أبي حاتم.... قال: قال رسول الله - صلَّى الله عليه وسلَّم -: (((عُرُبًا)؛ قال: كلامهنَّ عربي))"، ونقله القرطبي في التفسير أيضًا ج١٧ (ص٢١١)، ونقله الألوسي في تفسيره ج٢٠ (ص٢٣١)، وقال: "ولا أظن لهذا صحة؛ والتفسير بالمتحببات هو الذي عليه الأكثر"، وقال الحافظ في الفتح ج١٠ (ص٢٤): "وقد جاء مرفوعًا: (العُرُب كلامهن عربي) وهو ضعيف منقطع".
٢٧ المزهر، ج١ (ص١٠٥).
٢٨ اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ج١ (ص٤٢٤).

فيحفظ لنا طريقة فهم الكتاب والسنَّة، والاقتداء بالعرب في خطابها، فلو تُرك النَّاسُ على لحنِهم، كان نقصًا وعيبًا[٢٩]"

وقال أبو هلال العسكري: "فعلم العربية على ما تسمعُ من خاص ما يحتاجُ إليه الإنسانُ لجماله في دنياه، وكمال آلته في علومِ دينه"[٣٠]، وقال الشَّافعي" :من نظر في النَّحو، رقَّ طبعُه.[٣١]".

خامسًا: أنَّ اللغةَ العربية والمحافظة عليها من الدين، وهي خصيصة عظيمة لهذه الأمة: قال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه" :– تعلَّموا العربيةَ؛ فإنَّها من دينِكم"[٣٢]، وقال شيخُ الإسلام ابن تيمية: "فإنَّ نفسَ اللغة العربية من الدِّين، ومعرفتها فرضٌ واجب؛ فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهمِ اللغة العربية، وما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب، ثم منها ما هو واجبٌ على الأعيان، ومنها ما هو واجبٌ على الكفاية[٣٣]"

ويقول السيوطي: "ولا شكَّ أنَّ علم اللغة من الدين؛ لأنه من الفروضِ الكفايات، وبه تُعرفُ معاني ألفاظ القرآن والسنة[٣٤]"

وقال ابنُ فارس في" الصاحبي في فقهِ اللغةوسنن العرب في كلامها" "فلذلك قلنا: إنّ علم اللغة كالواجب عَلَى أهل العلم، لئلاَّ يحيدوا فِي تأليفهم، أَوْ فتياهم عن سَنن الاستواء، وكذلك الحاجة إِلَى علم العربية فإن

---

[٢٩] الفتاوى (٣٢٢٥٢).
[٣٠] اللغة العربية التحديات والمواجهة، ج١ (ص١٠)؛ للأستاذ: سالم مبارك الفلق.
[٣١] جامع بيان العلم وفضله؛ لابن عبدالبر، ج٢ (ص١٣٢).

[٣٢] مسبوك الذهب في فضل العرب وشرف العلم على شرف النسب، ج١ (ص٩)، وينظر: إيضاح الوقف والابتداء؛ تأليف أبي بكر محمد بن القاسم بن بشار الأنباري، تحقيق محيي الدين عبدالحميد رمضان، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٥هـ (١٩٧١م.
[٣٣] اقتضاء الصراط المستقيم (ص٢٠٧).
[٣٤] المزهر، ط دار إحياء الكتب العربية، ج٢ (ص٣٠٢).

الإعراب هو الفارق بَيْنَ المعاني؛ ألا ترى أن القائل إذا قال" :ما أحسن زيد "لَمْ يفرّق بَيْنَ التعجب والاستفهام والذمّ إِلاَّ بالأعراب؛ وكذلك إِذَا قال" :ضرب أخوك أخانا "و"وَجْهُك وجهُ حُرّ "و"وجهُك وجهٌ حرٌ "وَمَا أشْبَه ذَلِكَ من الكلام المشْتَبه[٣٥]"

سادسًا: أنَّ اللغة العربية مصدرُ عزٍّ للأمة:

لا بد من النظرِ إلى اللغة العربية على أنها لغةُ القرآن الكريم والسنة المطهرة، ولغةُ التشريع الإسلامي؛ بحيث يكون الاعتزازُ بها اعتزازًا بالإسلام، وتراثه الحضاري العظيم، فهي عنصرٌ أساسي من مقوماتِ الأمة الإسلامية والشخصية الإسلامية، والنظر إليها على أنها وعاء للمعرفةِ والثقافة بكلِّ جوانبها، ولا تكون مجردَ مادةٍ مستقلة بذاتها للدراسة؛ لأنَّ الأمَّةَ التي تهمل لغتَها أمةٌ تحتقر نفسَها، وتفرضُ على نفسِها التبعية الثقافية.

يقول مصطفى صادق الرافعي – رحمه الله – مبينًا هذا: "ما ذلَّت لغةُ شعبٍ إلاَّ ذلَّ، ولا انحطَّت إلاَّ كان أمرُه في ذَهابٍ وإدبارٍ، ومن هذا يفرضُ الأجنبيُّ المستعمر لغتَه فرضًا على الأمَّةِ المستعمَرة، ويركبهم بها، ويُشعرهم عظمتَه فيها، ويستلحِقهم من ناحيتِها، فيحكم عليهم أحكامًا ثلاثةً في عملٍ واحدٍ؛ أمَّا الأول: فحَبْس لغتهم في لغته سجنًا مؤبَّدًا، وأمَّا الثاني: فالحكمُ على ماضيهم بالقتلِ محوًا ونسيانًا، وأمَّا الثالث: فتقييد مستقبلهم في الأغلالِ التي يصنعها، فأمرُهم من بعدها لأمره تَبَعٌ[٣٦]"

وعلى هذا؛ ينبغي لمن يعرفُ العربيةَ ألا يتكلَّم بغيرِها، وكره الشافعي ذلك، وينبغي لمن دخل الإسلامَ من

[٣٥] انظر: الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها [ص: ٣٥].

[٣٦] وحي القلم (٣ ٢٧).

الأعاجمِ أن يتعلَّمَ العربية.

سابعًا: أن الجهل باللغة من أسباب الزيغ:

فالضعف في علومِ العربية سببُ ضلال كثير من المتفقِّهة؛ قال ابنُ جني: "إنَّ أكثر مَن ضلَّ من أهل الشريعة عن القصدِ فيها، وحاد عن الطريقةِ المثلى إليها، فإنما استهواه واستخفَّ حلمَه ضعفُه في هذه اللغةِ الكريمة الشريفة التي خُوطِب الكافَّةُ بها[٣٧]"

وقال عمرو بن العلاء لعمرو بن عبيد لما ناظره في مسألةِ خلود أهل الكبائر في النَّار، احتجَّ ابنُ عبيد أنَّ هذا وعْد الله، والله لا يخلفُ وعْدَه – يشير إلى ما في القرآنِ من الوعيد على بعضِ الكبائر بالنَّار والخلود فيها – فقال ابنُ العلاء: من العُجْمة أُتيتَ، هذا وعيدٌ لا وعد؛ [٣٨]

قال الشاعر:

وَإِنِّي وَإِنْ أَوْعَدْتُهُ أَوْ وَعَدْتُهُ

لَمُخْلِفُ إِيعَادِي وَمُنْجِزُمَوْعِدِي[٣٩]

ومن أمثلة التفاسير الخاطئة المبنية على الجهل بالعربية قول من زَعَم أنه يجوزُ للرجلِ نكاح تسع حرائر، مستدلاً بقوله – تعالى :– ﴿ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ﴾ [النساء: ٣]، فالمجموع تسع نسوة؛ قال الشاطبي: "ولم يشعر بمعنى فُعال ومفعل، وأنَّ معنى الآية: فانكحوا إن شئتم اثنتين اثنتين، أو ثلاثًا ثلاثًا، أو أربعًا أربعًا[٤٠]"

[٣٧] الخصائص، ج٣ (ص٢٤٥).
[٣٨] تفسير البغوي، ج٢ (ص٢٦٧).
[٣٩] البيت منسوب في ثمرات الأوراق لعامر بن الطفيل، ج١ (ص٤٣)، وكذا في الحور العين ج١
[٤٠] كتاب الاعتصام؛ للشاطبي، ج٢ (ص٥٦).

من ذلك قول من قال: إنَّ المحرَّمَ من الخنزير إنما هو اللَّحم، وأمَّا الشَّحمُ فحلال؛ لأنَّ القرآن إنما حرَّمَ اللحم دون الشحم، ولو عرف أنَّ اللحم يُطلقُ على الشحمِ، بخلاف الشحم فلا يطلقُ على اللحمِ، لَمَا قال ما قال.

ومن ذلك قول من قال في حديث: ((لا تسبُّوا الدَّهر؛ فإنَّ الله هو الدهر، يقلِّبُ الليلَ والنهار))[41] بأنَّ فيه مذهب الدهرية، وهذا جهل، فإنَّ المعنى: لا تسبوا الدَّهرَ إذا أصابتكم مصائب، ولا تنسبوها إليه، فإنَّ الله هو الذي أصابكم، فإنكم إذا سببتم الدهرَ، وقع السبُّ على الفاعل لا على الدهر.

قال الشاطبي – رحمه الله – بعد أن ذكرَ الأمثلة السابقة: "فقد ظهر بهذه الأمثلةِ كيف يقعُ الخطأ في العربيةِ في كلام الله – سبحانه – وسنة نبيه – صلَّى الله عليه وسلَّم – وأنَّ ذلك يؤدِّي إلى تحريفِ الكلم عن مواضعِه، والصحابة – رضوان الله عليهم – براءٌ من ذلك؛ لأنهم عربٌ لم يحتاجوا في فهمِ كلامِ الله – تعالى – إلى أدواتٍ ولا تعلم، ثم من جاء بعدهم ممن هو ليس بعربي اللسان تكلَّفَ ذلك حتى علمه[42]"

ولذا نجد أنَّ السلف ذموا اللحن في اللغة، وجعلوه قبيحًا، وخاصة لطالب العلم: فقد كثرت أقوالُ العلماء في ذمِّ اللحن؛ فعن أيوب السختياني – رحمه الله – أنه كان إذا لحن، قال : "أستغفرُ الله"[43]، وقال الأصمعي – رحمه الله –: "إنَّ أخوفَ ما أخاف على طالبِ العلم إذا لم يعرف النحوَ أن يدخلَ في جملة قوله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((من كذب عليَّ متعمدًا، فليتبوأ مقعدَه من

[41] أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب لا تسبوا الدهر ج١٩ (ص١٦١- ٥٧١٣)، ومسلم في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها، باب النهي عن سب الدهر ج١١ (ص٣١٣- ٤١٦٩).

[42] كتاب الاعتصام؛ للشاطبي، ج٢ (ص٥٨).
[43] تهذيب الكمال ج٨ (ص٣٢٨)، والتاريخ الكبير ج١ (ص٤٠٩)، وثقات ابن حبان ج٩ (ص٢٣).

النَّار))؛ لأنَّه لم يكن يلحن، فمهما رويت عنه ولحنت فيه، كذبت عليه"٤٤، وروى الخطيبُ البغدادي أنَّ عليًّا وابن عباس وابن عمر – رضي الله عنهم – كانوا يضربون أبناءهم على اللَّحن. ونُقل عن الرحبي أنه قال: سمعتُ بعضَ أصحابنا يقول: إذا كتب لحَّان فكتب عن اللحان لحَّانٌ آخر، فكتب عن اللحانِ لحَّان آخر، صار الحديثُ بالفارسية.٤٥

قد سمع عمر – رضي الله عنه – رجلاً يتكلَّم في الطوافِ بالفارسية، فأخذ بِعَضُدِهِ وقال: "ابتغ إلى العربية سبيلاً"٤٦، وقال عطاء: "رأى عمر رجلين وهما يَتَرَاطَنَان في الطوافِ، فعلاهما بالدِّرَّةِ، وقال: لا أُمَّ لكما، ابتغيا إلى العربية سبيلاً٤٧"

وضرب علي – رضي الله عنه – الحسنَ والحسين على اللَّحن٤٨، وكان ابن عمر – رضي الله عنهما – يضربُ أولادَه على اللَّحن ولا يضربهم على الخطأ.٤٩

وقال ابنُ فارس: "لذلك قلنا: إنَّ علم اللغة كالواجبِ على أهل العلم؛ لئلا يحيدوا في تأليفِهم أو فتياهم عن سَنن الاستواء٥٠"

وقال شيخُ الإسلامِ ابن تيمية – رحمه الله –: "ومن لم يعرفْ لغةَ الصحابةِ التي كانوا يتخاطبون بها ويخاطبهم بها النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – وعادتهم في الكلام، وإلا حرف الكلم عن مواضِعه؛ فإن كثيرًا من الناس ينشأ على اصطلاحِ قومه وعادتهم في الألفاظ، ثم يجد تلك الألفاظَ في كلامِ اللهِ أو رسوله

٤٤ تهذيب الكمال ج ١٨ (ص ٣٨٨).
٤٥ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع؛ للخطيب البغدادي، ج٣ (ص٢٣١-١٠٧١).
٤٦ شعب الإيمان؛ للبيهقي ج ٤ (ص ١٨٨ – ١٦٢٦).
٤٧ مصنف عبدالرزاق، ج ٥ (ص ٤٩٧)، وأخبار مكة؛ للفاكهي ج١ (ص٣٣١).
٤٨ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع؛ للخطيب البغدادي، ج ٣ (ص ٢٥١).
٤٩ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع؛ للخطيب البغدادي، ج ٣ (ص ٢٥٣).

٥٠ الصاحبي في فقه اللغة ج١ (ص١١)

أو الصحابة، فيظن أنَّ مرادَ الله أو رسوله أو الصحابة بتلك الألفاظ ما يريدُه بذلك أهلُ عادته واصطلاحه، ويكون مرادُ الله ورسوله والصحابة خلاف ذلك"[٥١]

وقال ابنُ فارس: "لذلك قلنا: إنَّ علم اللغة كالواجبِ على أهل العلم؛ لئلا يحيدوا في تأليفِهم أو فتياهم عن سَنن الاستواء[٥٢]"

وقال شيخُ الإسلامِ ابن تيمية – رحمه الله –: "ومن لم يعرفْ لغةَ الصحابةِ التي كانوا يتخاطبون بها ويخاطبهم بها النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – وعادتهم في الكلام، وإلا حرف الكلم عن مواضِعه؛ فإن كثيرًا من الناس ينشأ على اصطلاحِ قومه وعادتهم في الألفاظ، ثم يجد تلك الألفاظَ في كلامِ اللهِ أو رسوله أو الصحابة، فيظن أنَّ مرادَ الله أو رسوله أو الصحابة بتلك الألفاظ ما يريدُه بذلك أهلُ عادته واصطلاحه، ويكون مرادُ الله ورسوله والصحابة خلاف ذلك"[٥٣].

وقد تحسَّر ابنُ فارس – رحمه الله – على أهلِ وقته من غفلتِهم عن العلوم العربية، وانشغالِهم عنها؛ فقال – رحمه الله –: "وقد كان النَّاسُ قديمًا يجتنبون اللَّحنَ فيما يكتبونه أو يقرؤونه اجتنابهم بعض الذُّنوب، فأمَّا الآن فقد تجوَّزوا حتى إنَّ المحدثَ يحدِّثُ فيلحن، والفقيه يؤلف فيلحن، فإذا نُبِّها قالا: ما ندري ما الإعراب، وإنما نحن محدِّثون وفقهاء، فهما يسران بما يساء به اللبيب[٥٤]"

وقال العلامةُ الشيخ بكر أبو زيد – رحمه الله – في كتابِه القيِّم "حلية طالب العلم": "احذر اللَّحن؛ ابتعد

---

[٥١] مجموع الفتاوى، ج١ (ص٢٤٣).
[٥٢] الصاحبي في فقه اللغة، ج١ (ص١١).
[٥٣] الاعتصام، ج١ (ص٥٠٣).
[٥٤] الصاحبي في فقه اللغة، ج١ (ص١١).

عن اللحنِ في اللفظ والكتب؛ فإنَّ عدم اللحنِ جلالةٌ وصفاء ذوق، ووقوف على ملاح المعاني لسلامةِ المباني".

وما أحسنَ ما قاله الشَّاعرُ عبدالرحمن العشماوي في وصفِ مَن يلحن في لفظِه:

يُلْقِي عَلَى الْمَرْفُوعِ صَخْرَةَ جَهْلِهِ

فَيَصِيرُ تَحْتَ لِسَانِهِ مَجْرُورَا

وَيَنَالُ مِنْ لُغَةِ الْكِتَابِ تَذَمُّرًا

مِنْهَا وَيَكْتُبُ فِي الْفَرَاغِ سُطُورَا

وَرَأَيْتُ مَبْهُورًا بِذَلِكَ كُلِّهِ

فَرَحِمْتُ ذَاكَ الْجَاهِلَ الْمَغْرُورَا

وَعَلِمْتُ أَنَّ الْعَقْلَ فِينَا قِسْمَةٌ

وَاللهُ قَدَّرَ أَمْرَنَا تَقْدِيرَا

وسنبين بشيء من التفصيل أهمية اللغة العربية لكل من المفسر والمحدث والفقيه:

أهمية اللغة العربية للمفسِّر والمحدث:

قال الشاطبي – رحمه الله –: "وعلى النَّاظرِ في الشريعةِ والمتكلم فيها أصولاً وفروعًا أمران؛ أحدهما: ألا يتكلَّمَ في شيء من ذلك حتى يكون عربيًّا أو كالعربي؛ في كونِه عارفًا باللِّسان العربي، بالغًا فيه مبلغ

العرب؛ قال الشَّافعي – رحمه الله –: فمن جهل هذا من لسانها – وبلسانها نزل الكتاب، وجاءت السنة – فتكلَّفَ القول في علمِها، تكلف ما يجهل بعضه، ومن تكلف ما جهل وما لم تثبتْ معرفتُه، كانت موافقته للصواب – إن وافقه – غيرَ محمودة، والله أعلم، وكان بخطئه غيرَ معذورٍ؛ إذ نطق فيما لا يحيطُ علمه بالفرقِ بين الخطأ والصواب فيها[٥٥]

وأبان عن هذه الأهميةِ أهلُ اللغة أنفسهم؛ يقول الزمخشري: "وذلك أنهم لا يجدون علمًا من العلومِ الإسلامية فقهها وكلامها، وعلمي تفسيرها وأخبارها، إلا وافتقاره إلى العربية بيِّن لا يُدفع، ومكشوفٌ لا يتقنَّع، ويَرَوْن الكلامَ في معظم أبواب أصول الفقه ومسائلها مبنيًّا على علمِ الإعراب[٥٦]"

وما ذكره الزمخشري صحيحٌ؛ وذلك لتوقُّفِ معرفة دلالات الأدلة اللفظية من الكتابِ والسنة، وأقوالِ أهلِ العقد والحل من الأمة على معرفة موضوعاتها لغة من جهة: الحقيقة والمجاز، والعموم والخصوص، والإطلاق والتقييد، والحذف والإضمار، والمنطوق والمفهوم، والاقتضاء والإشارة، والتنبيه والإيماء، وغير ذلك مما لا يعرفُ في غيرِ علم العربية.[٥٧]

وقال الحسن البصري – رحمه الله" :– أهلكتهم العجمةُ؛ يتأولونه على غيرِ تأويله[٥٨]"

وقال شيخُ الإسلام ابن تيميَّة – رحمه الله –: "لا بُدَّ في تفسيرِ القرآن والحديث من أن يُعرَف ما يدلُّ على مرادِ الله ورسوله من الألفاظ، وكيف يُفهَم كلامُه؟ فمعرفةُ العربيةِ التي خُوطبنا بها ممَّا يُعين على أن نفقه مرادَ اللهِ ورسولِه بكلامِه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظِ على المعاني؛ فإنَّ عامَّة ضلالِ أهل البدع كان بهذا

[٥٥] الاعتصام، ج١ (ص٥٠٣).
[٥٦] المفصل؛ للزمخشري (ص ٣).
[٥٧] الإحكام في أصول الأحكام (١ ٨٢٧).
[٥٨] خلق أفعال العباد للبخاري ج١ (ص١٣٠- ١٢٥)، وربيع الأبرار ج١ (ص٣٢١).

السبب، فإنَّهم صاروا يحملون كلامَ اللهِ ورسولِه على ما يَدَّعون أنَّه دالٌّ عليه، ولا يكون الأمر كذلك[٥٩]"

وقال أبو حيان في معرضِ ثنائه على سيبويه – رحمه الله –: "فجدير لمن تاقت نفسُه إلى علمِ التفسير، وترقَّتْ إلى التحريرِ والتحبير، أن يعتكفَ على كتابِ سيبويه؛ فهو في هذا الفنِّ المعوَّل عليه، والمستند في حلِّ المشكلات إليه[٦٠]"

وقال الزركشي: "واعلم أنَّه ليس لغيرِ العالم بحقائقِ اللغة وموضوعاتها تفسير شيء من كلامِ الله، ولا يكفي في حقِّه تعلم اليسير منها؛ فقد يكونُ اللَّفظُ مشتركًا وهو يعلم أحدَ المعنيين والمراد المعنى الآخر[٦١]"

ولهذا السبب يقول مالك – رحمه الله –: "لا أُوتَى برجلٍ غير عالم بلغةِ العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالاً"[٦٢]، ولهذا أيضًا نجد التفاسيرَ مشحونةً بالرِّواياتِ عن سيبويه والأخفش والكسائي والفراء وغيرهم، فالاستظهارُ لبعضِ معاني القرآن الكريم وأسرارِه نابعٌ من الاستعانةِ بأقاويلهم، والتشبث بأهدابِ فسْرهم وتأويلهم؛ كما قال الزمخشري في "المفصَّل[٦٣]"

وروى أبو عبيد في فضائلِ القرآن عن أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – قال: "لأن أعرب آيةً أحب إليَّ من أن أحفظَ آية"[٦٤]؛ وذلك لأنَّ فهمَ الإعراب يعينُ على فهمِ المعنى، والقرآن نزل للتدبرِ والعمل.

ومما يجب فهمه بالنسبة للمفسر لكتاب الله ما يلي:

---

[٥٩] الإيمان (ص١١١).
[٦٠] البحر المحيط (١٣).
[٦١] البرهان في علوم القرآن [١/ ٢٩٥].
[٦٢] الإتقان في علوم القرآن [٤/ ٢٠٩].
[٦٣] المفصل (ص٣).
[٦٤] الإشراف في منازل الأشراف، ج١ (ص٤٧٠- ٤٦٩).

1–معرفةُ أوجهِ اللغة؛ وهو أمرٌ ضروري في اختيارِ ما يناسب النص، وقَصْر المعنى على الوجهِ المراد، ومن ذلك على سبيل المثال قوله – تعالى :– ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾ [الضحى: ٧]، فإنَّ لفظة: (الضلال) تقعُ على معانٍ كثيرة، فتوهَّم البَعْضُ أنَّه أراد بالضَّلالِ الذي هو ضد الهدى، وزعموا أنَّ الرسول – صلَّى الله عليه وسلَّم – كان على مذهبِ قومه أربعين سنة، وهذا خطأ فاحش؛ فقد طهَّرَه الله تعالى لنبوتِه، وارتضاه لرسالته، ومن سيرته – صلَّى الله عليه وسلَّم – ما يرد على مزاعمِهم؛ إذ سُمِّي في الجاهليةِ الأمين، وكانوا يرتضونه حكمًا لهم وعليهم، والله – سبحانه وتعالى – إنما أراد بالضَّلالِ الذي هو الغفلة، كما قال في مواضعَ أخرى :﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ [طه: ٥٢]؛ أي: لا يغفل – سبحانه وتعالي ٦٥. وقال ابن عباس – رضي الله عنهما –: "هو ضلاله وهو في صغرِه في شعابِ مكة، ثم ردَّهُ الله إلى جدِّه عبد المطلب، وقيل: ضلاله من حليمةَ السعدية مرضعته، وقيل: ضلَّ في طريقِ الشَّامِ حين خرج به عمه أبو طالب٦٦"

٢– معرفة الصِّيغ وما تدل عليه من معنى؛ لئلا يؤدِّي ذلك إلى تفسيرِ القرآن الكريم بما لا يليق، أو فهم المعنى غير المراد؛ ومن ذلك على سبيل المثال: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦]، وغير ذلك من الآياتِ التي ورد فيها نفي الظلم عن الله – سبحانه وتعالى – بصيغة (فعَّال)، ففي هذه الآيةِ وما أشبهها وردت لفظةُ (ظلاَّم) بصيغةِ المبالغة، ومعلومٌ أنَّ نفي المبالغة لا يستلزم نفي الفعل من أصلِه؛ مثال ذلك

[٦٥] انظر: الإنصاف لأبي محمد عبدالله بن السِّيد البطليوسي (ص٧٢).

[٦٦] البحر المحيط في التفسير [١٠/ ٤٩٧].

قولك: زيد ليس بنحَّارٍ للإبل، لا ينفي إلا مبالغته في النَّحر، ولا ينفي أنه ربما نَحَر بعضَ الإبل، ومعلوم أنَّ المرادَ بنفي المبالغة في الآياتِ هو نفي الظلم من أصلِه عن الله – سبحانه وتعالى.

وأُجيب عن ذلك بناءً على فهمِ اللغة العربية؛ وهو أنَّ المراد نفي نسبة الظلمِ إليه – سبحانه – لأنَّ صيغة (فعَّال) قد جاءت في اللغةِ العربية مرادًا بها النسبة فأغنت عن ياء النَّسب، ومثاله في لغةِ العرب قول امرئ القيس:

وَلَيْسَ بِذِي رُمْحٍ فَيَطْعُنَنِي بِهِ

وَلَيْسَ بِذِي سَيْفٍ وَلَيْسَ بِنَبَّالِ[٦٧]

ي: ليس بذي نَبْلٍ، وعلى هذا أجمعَ المحقِّقون من المفسِّرين واللغويين[٦٨]

3–معرفةُ الأوجه الإعرابية: فمما يجبُ معرفتُه على المفسر معرفة أوجه الإعراب؛ لأنَّ المعنى يتغيرُ بتغير الإعراب، ويختلف باختلافِه، وعلى سبيلِ المثال لو أنَّ قارئًا قرأ :﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ٤] برفع) كفو (ونصب) أحد (لكان قد أثبتَ كفوًا لله – تعالى عمَّا يقولون علوًّا كبيرًا – بل إنَّ الحركةَ لها دورٌ في المعنى ولو لم تكن إعرابًا، ويدلُّ على ذلك لزوم كسر الخاء في قوله – تعالى :– ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ﴾ [الحديد: ٣]، وكسر الواو في قوله – تعالى :– ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ﴾ [الحشر: ٢٤]، فإنَّ فتحَها يؤدِّي إلى الكفر.

4–ومما يحتاجُه طالبُ علم التفسير المعرفة بلغات العرب؛ إذ من المعلوم أنَّ لكلِّ قبيلة لغتها، وأفصح

---

[٦٧] ديوان امرئ القيس (ص٤٩).
[٦٨] انظر: البحر المحيط (٣١٣١)، وتفسير أبي السعود (٢١٢١)، وروح المعاني للألوسي (٤١٤٣)، وأضواء البيان للشنقيطي (٧١٤٠).

اللغاتِ لغة قريش، إلا أنَّ هناك بعضَ الكلمات في القرآن جاءت على غيرِ لغة قريش، فقد أشكل على عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – معنى قوله – تعالى :– ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ ﴾ [النحل: ٤٧]، فقام في المسجدِ فسأل عنها، فقامَ إليه رجلٌ من هذيل، فقال معناها" :على تنقصٍ"؛ أي: شيئًا فشيئًا، ودليلُه قولُ شاعرنا الهذلي يصفُ سرعةَ ناقتِه:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكًا قَرِدًا

كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ ٦٩

أي: أخذ الرحل يحتكُّ بسنامِ النَّاقة من سرعتها، حتى كاد ينقص كما يبري البحَّار عود السفينة بالسِّكين لينقصَ منها.

همية العربية في فهم الحديث:

العربية شرطٌ في المحدِّث؛ قال ابنُ الصلاح: "وحق على طالبِ الحديث أن يتعلَّمَ من النَّحوِ واللغة ما يتخلَّصُ به من شين اللحن والتحريف ومعرتهما"٧٠، وروى الخطيب عن شعبة قال: "من طلب الحديثَ ولم يبصر العربيةَ كمثل رجلٍ عليه برنس وليس له رأس"٧١، وروى أيضًا عن حماد بن سلمة قال: "مثل

٦٩ قال في العباب الزاخر ج١ (ص٤٠٩): "أنشد البيت الأزهري لابن مقبل، وليس له، ورواه بعضهم لذي الرمة، وليس له، وروى صاحب الأغاني في ترجمة حماد الراوية أنه لابن مزاحم الثمالي، ويروى لعبد الله بن عجلان النهدي".

٧٠ مقدمة ابن الصلاح، ج١ (ص١٢٠).
٧١ المصدر السابق.

الذي يطلبُ الحديثَ ولا يعرف النَّحوَ مثل الحمارِ عليه مخلاة ولا شعيرَ فيها[٧٢]"

وقد روى الخليلي في" الإرشاد "عن العباسِ بن المغيرة عن أبيه قال: جاء عبد العزيز الدراوردي في جماعةٍ إلى أبي ليعرضوا عليه كتابًا، فقرأ لهم الدراوردي، وكان رديء اللسانِ يلحن، فقال أبي: "ويحك يا دراوردي أنت كنتَ إلى إصلاح لسانك قبل النظرِ في هذا الشأن أحوج منك إلى غير ذلك"[٧٣]

ويقول الحافظُ أبو الحجَّاج يوسف بن الزكي المِزِّي (ت٧٤٢هـ) في مقدمِة كتابه" تهذيب الكمال في أسماء الرجال" :"ينبغي للناظرِ في كتابنا هذا أن يكونَ قد حصَّل طرفًا صالحًا من علمِ العربية؛ نحوها ولغتها وتصريفها، ومن علم الأصول والفروع، ومن علم الحديث والتواريخ وأيام الناس".

أهمية اللغة العربية للفقيه:

جَعَل علماءُ أصولِ الفقه من شروط المجتهد أن يكون عالمًا بأسرارِ العربية، وبخاصة علم النحو؛ لأنَّ الشريعةَ عربية ولا سبيل إلى فهمِها إلا بفهمِ كلام العرب، وما لا يتمُّ الواجبُ إلا به فهو واجب، كما ذكر ذلك صاحبُ" المحصولِ في أصول الفقه "حيث يقول: "مسألة في شرائط المجتهد: أعلم أن شرط الاجتهاد أن يكون المكلف بحيث يمكنه الاستدلال بالدلائل الشرعية على الأحكام، وهذه المكنة مشروطة بأمور: أحدها: أن يكون عارفاً بمقتضى اللفظ ومعناه؛ لأنه لو لم يكن كذلك لم يفهم منه شيئاً؛ ولما كان اللفظ قد يفيد معناه لغة وعرفاً وشرعاً وجب أن يعرف اللغة والألفاظ العرفية والشرعية[٧٤]"

---

[٧٢] المصدر السابق.
[٧٣] تدريب الراوي، ج٢ (ص ١٠٦).
[٧٤] المحصول للرازي [٦/ ٢١].

وقد شرطه الجماهيرُ من الأصوليين؛ كالشافعي والغزالي والجويني والآمدي والقرافي والفتوحي والطوفي والشوكاني وغيرهم.

بل نجدُ ابنَ حزم – رحمه الله – يصرحُ بوجوب تعلم النحو للمفتي؛ حتى لا يقعَ في الخطأ، وإضلال النَّاسِ جراء الفهمِ السَّقيمِ للنصوص.

تنبيه:

ذكر بعضُ العلماء أنَّ معرفةَ متون مختصرة في علومِ العربية تكفي للمجتهد، وهذا القولُ غير صحيح، بل لا بد من التضلع في اللغةِ لمن أراد الاجتهاد؛ يقول الشوكاني – رحمه الله –: "ومن جعل المقدارَ المحتاج إليه في هذه الفنونِ هو معرفة مختصر من مختصراتِها، أو كتاب متوسط من المؤلفاتِ الموضوعة، فيها فقد أَبْعَد، بل الاستكثار من الممارسةِ لها، والتوسع في الاطلاعِ على مطولاتِها مما يزيدُ المجتهد قوةً في البحث، وبصرًا في الاستخراج، وبصيرة في حصولِ مطلوبه، والحاصلُ أنه لا بد أن تثبتَ له الملكة القوية في هذه العلوم، وإنما تثبت هذه الملكة بطولِ الممارسة، وكثرة الملازمة لشيوخِ هذه الفنون[٧٥]"

وهذا هو ما يفهم من كلامِ الصَّحابةِ والسلف وأقوال اللغويين؛ أنه ليس المقصود من تعلم اللغة العربية الاقتصار فقط على القواعدِ الأساسية التي تتوقَّفُ وظيفتها على معرفةِ ضوابط الصحة والخطأ في كلام العرب؛ وإنما المقصودُ من تعلمِ اللغة العربية لدارس الكتاب والسنة والمتأمل فيهما هو فهم أسرارها،

[٧٥] إرشاد الفحول، ج١ (ص٣٧٠).

والبحث عن كلِّ ما يفيدُ في استنطاق النَّصِّ، ومعرفة ما يؤديه التركيبُ القرآني على وجه الخصوص؛ باعتباره أعلى ما في العربيةِ من بيان، وقد نبَّه على هذه الخاصيةِ الزَّجاجيُّ في كتابه" الإيضاح في علل النحو"؛ حيث يقول: "فإن قِيل: فما الفائدةُ في تعلم النحو؟ فالجوابُ في ذلك أن يُقال: الفائدة فيه للوصولِ إلى التكلم بكلامِ العرب على الحقيقة صوابًا غير مبدل ولا مغير، وتقويم كتاب الله – عزَّ وجلَّ – الذي هو أصل الدِّينِ والدنيا والمعتمد، ومعرفة أخبار النبي – صلَّى الله عليه وسلَّم – وإقامة معانيها على الحقيقة؛ لأنَّه لا تفهم معانيها على صحةٍ إلا بتوفيتِها حقوقها من الإعراب[٧٦]"

وليعلم أنه بمقدارِ التضلُّعِ من علوم العربية مع العلوم الأخرى المشروطة، يكون قرب المجتهد من الفهمِ الصحيح للنصوص؛ قال الإمامُ الشافعي – رحمه الله –: "وما ازداد – أي: المتفقه – من العلمِ باللسان الذي جعله الله لسان من خَتَم به نبوته، وأنزل به آخرَ كتبِه، كان خيرًا له[٧٧]"

وقال الشاطبي – رحمه الله –: "وإذا فرضنا مبتدئًا في فهمِ العربية فهو مبتدئ في فهم الشَّريعة، أو متوسطًا فهو متوسطٌ في فهم الشريعة، والمتوسط لم يبلغْ درجةَ النهاية، فإذا انتهى إلى الغايةِ في العربية كان كذلك في الشَّريعة، فكان فهمه فيها حجة، كما كان فهمُ الصحابة وغيرهم من الفصحاءِ الذين فهموا القرآن حجةً، فمن لم يبلغ شأوهم، فقد نقصه من فهمِ الشريعة بمقدار التقصير عنهم، وكل من قصر فهمه لم يكن حجة، ولا كان قوله مقبولاً [٧٨]"

ولكن العلماء يفرِّقون بين طبيعةِ العمل الاجتهادي؛ فمنه ما يتعلَّقُ باستنباطِ المصالحِ والمفاسد مجردًا من اقتضاءِ النُّصوص لها، وإنما العلم بمقاصدِ الشريعة، فهذا العلمُ لا يلزمُ له معرفة واسعة في العلومِ العربية،

[٧٦] الإيضاح في علل النحو؛ للزجاجي (٩٥).
[٧٧] الرسالة، ج١ (ص٤٧).
[٧٨] الموافقات [٥/ ٥٣].

وإنما يلزمُ العلم بمعرفةِ مقاصد الشريعة، وإن تعلق الاستنباط بالنصوص الشرعية، فلا بد من اشتراطِ العلم بالعربية[٧٩].

فالعربية إذًا وسيلةٌ من وسائلِ الاهتداء إلى بعضِ الأحكام الفقهية من نصوصِ الشريعة، وقد نبَّه العلماءُ الأوائل على هذه الأهميةِ في استنباط الأحكامِ الشرعية، ومن هؤلاء على سبيل المثال:

1-القرافي (ت ٦٨٢ هـ) في كتابِه" الاستغناء في أحكام الاستثناء."

2-الإسنوي (ت ٧٧٢ هـ) في كتابِه" الكوكب الدري."

3-أبو بكر محمد بن عبدالله؛ المعروف بابنِ العربي، صاحب كتاب" أحكام القرآن الكريم."

4-القرطبي في تفسيره؛ حيث إنه كثيرًا ما يعبِّرُ في الردِّ على بعض الأقوال بقوله" :وهذا كلُّه جَهْلٌ باللسانِ والسنة ومخالفة لإجماع الأمة"[٨٠]

ولا أدلَّ على ذلك من جَعْل النحو أحد ثلاثة مصادر منها استمداد أصول الفقه، وهذه المصادر: علم الكلام، وعلم العربية، والأحكام الشرعية، بل إنَّ تحديدَ الدلالةِ اللفظية قد يتوقَّفُ عليها تقرير الحكم الشرعي؛ لأنَّ الأسلوبَ العربي في لغةِ القرآن الكريم يتميَّزُ بالتصرفِ في فنون القول، وتكثر فيه الألفاظُ التي تمثل أكثر من معنى، ومن ذلك على سبيلِ المثال:

1-لفظة) اللَّمس (الواردة في قولِه – تعالى :- ﴿ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾]النساء: ٤٣[، فمن الفقهاءِ من حدَّدَ معنى) اللمس (بالاتصالِ بالمرأة، ومنهم من حدَّده بمعنى المسِّ فقط.

---

[٧٩] انظر: الموافقات [٥/ ١٢٤] بتصرف.
[٨٠] تفسير القرطبي (٥١٧) لقوله تعالى: (فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ) [النساء: ٣].

2–ومن ذلك أيضًا ما ورد في حديثِ الرسول – صلَّى الله عليه وسلَّم – فقد قال رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم –:((أسرعكنَّ لحاقًا بي أطولكنَّ يدًا))٨١ ، قاله لنسائه، فحسبْنه من الطولِ الذي هو ضد القصر، فظنت سَوْدة إحدى زوجاته أنَّها المرادة، فلما ماتت زينب – رضي الله عنها – قبلها، علمْنَ حينئذٍ أنَّ المراد بالطولِ هو الفضل والكرم، وكانت زينبُ أكثرهنَّ صدقة، وهذا يوافق كلامَ العرب؛ فهم يقولون: فلان أطول يدًا، في حالةِ الكرم٨٢

وقد فطنَ بعضُ العلماء إلى أهمية تلك المعرفة؛ ومنهم الراغب الأصفهاني (ت٥٥٢ هـ) في كتابه "المفردات في غريب القرآن"؛ حيث تناولَ في هذا الكتابِ التحديدَ الدقيق بين دلالاتِ الألفاظ في القرآن الكريم، وكذلك فعل الزمخشري في كتابه" أساس البلاغة"؛ حيث وضَّحَ الاستعمالاتِ المختلفةَ للفظ، وما يضيفه الاستعمالُ من دلالةٍ حقيقية أو مجازية، كما فطن إلى ذلك أيضًا الإمامُ الشافعي – رحمه الله – في كتابه" الرسالة"٨٣، وذكر ابن السيد البطليوسي في كتابه" التنبيه على الأسبابِ التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين ٨٤"أنَّ الإعرابَ له تأثير بيِّنٌ في الأحكامِ الفقهية وتوجيهها؛ فالمعاني تختلفُ باختلافِ وجوه الإعراب، ويختلف الحكم تبعًا لذلك؛ وعلى سبيل المثال:

لو قال شخصٌ: له عندي مائةٌ غيرُ درهم، برفع(غير)لكان مقرًّا بالمائةِ كاملة؛ لأنَّ غير هنا صفة للمائة، وصفتها لا تنقص شيئًا منها٨٥، ولو قال: له عندي مائةٌ غيرَ درهم، بنصب(غير)لكان مقرًّا بتسعةٍ وتسعين درهمًا؛ لأنه استثناء، والاستثناء إخراجُ ما بعد حرف الاستثناء من أن يتناولَ ما قبله.

---

٨١ أخرجه مسلم رقم (٢٤٥٢).
٨٢ انظر: الإنصاف للبطليوسي (ص٢١).
٨٣ انظر: الرسالة (ص٥٢)؛ تحقيق أحمد شاكر.
٨٤ انظر: التنبيه للبطليوسي (ص١٨٤).
٨٥ شرح المفصل لابن يعيش (١١١).

ولو قال لزوجتِه: أنت طالق إن دَخَلْتِ الدار، بكسر همزة(إن)، لم تطلق حتى تدخلَ الدَّار؛ لأنَّ(إن) للشرط، ولو قال: أنت طالق أن دَخَلْتِ الدار، بفتح همزة(أن)، وقع الطلاق في الحال؛ لأن معنى الكلام: أنت طالقٌ لأن دخلت الدار؛ أي: من أجلِ أنك دخلتِ الدار؛ فصار دخولُ الدارِ علة طلاقها، لا شرطًا في وقوعِ طلاقها.٨٦

بل إنَّ الحكم يختلف باختلافِ تصاريف الكلمة؛ فلو أنَّ رجلاً حلف ألا يلبسَ مما غزلته فلانة، فلا يحنثُ إلا بما غزلته قبل اليمين، ولو قال: مما تغزله فلا يحنثُ إلا بالذي تغزله بعد اليمين، فلو قال: من غَزْلِها دخل فيه الماضي والمستقبل.٨٧

مميزات اللغة وخصائصها:

اللغةُ العربية ذات ميزات عديدة، فهي أوسعُ اللغات وأصلحها؛ في جمع معانٍ، وإيجازِ عبارة، وسهولةِ جريٍ على اللسان، وجمالِ وقْعٍ في الأسماع، وسرعةِ حفظ.

ومن مميزات لغتنا الجميلة ما يلي:

1-سعة اللغة العربية:

٨٦ انظر: معاني الحروف للرماني (ص١٧٤)، والتنبيه للبطليوسي (ص١٨٨)، وشرح المفصل (١٢).

٨٧ الكوكب الدري (ص ٣٠٨).

مفرداتها وفيرة، وكلُّ مرادفٍ ذو دلالة جديدة، فالأسدُ له أسماء كثيرة لكلِّ واحد منها معنى يختصُّ به، وللناقةِ كذلك، وما من حيوان أو جماد أو نبات إلا وله الكثير من الأسماءِ والصفات، مما يدلُّ على غنى هذه اللغةِ الرائعة، ولأنواعِ الحزن والترح والأسى معانٍ متعددة، ولليوم الآخر – على سبيل المثال – أكثر من ثمانين اسمًا، عددها ابنُ قيم الجوزية – رحمه الله – في مدارج السالكين، لكلٍّ منها سبب ومعنى يختصُّ به، وهذا ما لا نجدُه في أكثر اللغات الأخرى.

قال الإمام الشافعي – رحمه الله –: "لسانُ العربِ أوسع الألسنة مذهبًا، وأكثرها ألفاظًا، ولا نعلمه يحيط بجميعِ علمه إنسانٌ غير نبي، ولكنَّه لا يذهبُ منه شيء على عامَّتها، حتى لا يكونَ موجودًا فيها مَنْ يعرِفه، والعلمُ به عند العربِ كالعِلم بالسُّنة عند أهلِ الفقه، لا نعلم رجلاً جمع السنن فلم يذهب منها عليه شيء، فإذا جمع علم عامة أهل العلم بها أتى على السُّنن، وإذا فُرّق عِلْم كلِّ واحد منهم، ذهب عليه الشيءُ منها"[٨٨]

وأكثر مواد اللغة العربية غير مستعملة، وكثيرٌ منه غير معروف؛ قال الكسائي" :قد دَرَس من كلامِ العرب كثير[٨٩]"، وقال أبو عمرو بن العلاء: "ما انتهى إليكم مما قالت العربُ إلا أقله، ولو جاءكم وافرًا، لجاءكم علمٌ وشعر كثير"[٩٠]، وذكر الزبيدي في مختصر" العين "أنَّ عدةَ مستعمَلِ الكلامِ كله ومهمله ستة آلاف ألف وتسعة وخمسون ألفًا وأربعمائة (٦٠٥٩٤٠٠)؛ والمستعملُ منها خمسةُ آلافٍ وستمائة وعشرون (٥٦٢٠)، والمهمل ستة آلاف ألف وستمائة ألف وثلاثة وتسعون (٦٦٠٠٠٩٣).

[٨٨] الرسالة، ج١ (ص٤٢).
[٨٩] لسان العرب، ج٢ (ص٥٩٣).
[٩٠] تفسير اللباب؛ لابن عادل، ج٧ (ص١٨٦).

وذكر عبدالغفور عطار أنَّ المستعملَ في العربية في عصرِنا الحاضر لا يكادُ يزيد على عشرةِ آلاف مادة، مع أنَّ" الصِّحاحَ "للجوهري يضم أربعين ألف مادة، و"القاموس "ستين ألف مادة، و"التكملة "ستين ألف مادة، و"اللسان "ثمانين ألف وأربعمائة، و"التاج "عشرين ومائة ألف مادة؛ حتى قال السيوطي" :وأين سائرُ اللغاتِ من السَّعة ما للغة العرب؟[٩١]"!

ومع أنَّ المستعمل من موادِّ اللغة العربية ليس إلا أقل القليل منها، فإنها لم تضقْ عن حاجة الإنسان وتجاربه، وخواطره وعلومه، وفنونه وآدابه؛ بل وسعت روافدَ الحضارةِ والعلوم غير المعروفة عند العربِ في أزهى العصور الإسلامية، حتى صار لسانُ حالِ لغتنا الحبيبة كما قال حافظ إبراهيم:

وَسِعْتُ كِتَابَ اللهِ لَفْظًا وَغَايَةً

وَمَا ضِقْتُ عَنْ آيٍ بِهِ وَعِظَاتِ

فَكَيْفَ أَضِيقُ اليَوْمَ عَنْ وَصْفِ آلَةٍ

وَتَنْسِيقِ أَسْمَاءٍ لَمُخْتَرَعَاتِ؟!

أَنَا الْبَحْرُ فِي أَحْشَائِهِ الدُّرُّ كَامِنٌ

فَهَلْ سَاءَلُوا الغَوَّاصَ عَنْ صَدَفَاتِي؟

وصدق حافظُ إبراهيم في كلماتِه، ولو أنها نطقتْ لتكلَّمَت بأعجب من ذلك.

2–ولغتنا قائمة على جذور متناسقة لا تجدها في اللغات الأخرى قاطبة:

[٩١] المزهر، ج١ (ص٣٢١).

فالفعلُ الماضي ذهب، ومضارعه يذهبُ، وأمره اذهب، من جذرٍ واحد، أمَّا مثيله في الإنجليزية فماضيه "went"ومضارعه وأمره "go" كلمتان مختلفتان كليًّا، وخذ مثلاً الفعل "cut" بمعنى قطع، يقطع، اقطع، تجده رسمًا واحدًا في الأزمنةِ الثلاثة كلِّها، وتضطر إلى وضعِها في جملٍ كي تعرفَ الزَّمنَ لكلٍّ منها، بينما زمن الفعل في العربية معروف .

3–كما أنَّ للأفعال المتقاربة الجذور في العربية معانيَ متشابهةً لا ترى أمثالها في اللغات الأخرى:

فالفعل) قطع (إذا بدل الحرف الأخير فقط قيل: قط، قطم، قطف، قطش، تجد فيها اشتراكًا في قضمِ الشيء إلى قطع، وفي الفعل) سما (المفتوح العين ثلاثة حروف كذلك، بدِّل الحرفَ الأخير وقلْ مثلاً: سمج، سمر، سمح، سمك، سمق، سمط، تجد اشتراكها في العلوِّ، وهكذا.

4–يذكر الدكتور عبدالله الدنان المهتم بتعليمِ اللغة العربية للناشئةِ منذ الصغر أشياءَ عجيبة عن لغتِنا الحبيبة فيقول:

"إنَّ كثيرًا من الكلماتِ الإنجليزية مأخوذةٌ من اللغةِ العربية؛ ومن ذلك) الباكلوريوس (أو كما يُقال: باكلوريا في بلادِ الشام لشهادة الثانوية، بأنَّ أصلَها جاء من العربيةِ؛ حيث إنَّ العلماءَ من المحدثين ومقرئي القرآن كانوا إذا أجازوا الطالبَ كتبوا له في الإجازة) :أجزناك بحقِّ الرِّواية(، فأخذوها منَّا ثم حُرِّفت: (بحقِّ الرواية، بهك الرواية، بك رواية، باكلوريا)، وقد ذكر أمثلة عديدة من هذا القبيل.

5–وقام مؤلفُ كتاب" اللغة العربية أصل اللغات كلها "في القسم الثاني من الكتابِ بدراسةٍ معجمية مقارنة، أجراها الباحث على نحو خمسمائة كلمة إنجليزية متسلسلة حسب الترتيب الهجائي في قاموس المورد، بدءًا من أولِ كلمة في حرف A وهي (Aard) التي أصلها العربي (أرض)، وهكذا ستجد العجبَ

في هذه اللغة الأم، ومن أمثلة ما جاء في المورِدِ لفظ الجلالة (الله) صار لديهم(allah) ، وعباءة (aba)، ولفظة (algebra) مأخوذة من علمِ الجبر، حتى عفريت أصلها عربي فيكتبونها(afreet) ، وكلمات كثيرة كالفلاح(fellah) ، والفلس(fils) ، والقطن(cotoon) ، والحنَّاء(henna) ، ومومياء (mummy)، والزَّعفران(saffron) ، والسبانخ ...(spinach) إلخ.

6–إنَّ اللغةَ العربية تميز بين المذكر والمؤنث، سواء في العددِ أو في غيره، بعكس اللغاتِ الأخرى، وتسيرُ العربية على عنصرِ المخالفة للتمييزِ بين المؤنَّثِ والمذكر في العدد، وليس في هذا تعقيدٌ ما دام هناك نظامٌ مطرد.

7–وقال الخفاجي في" سر الفصاحة" :"وقد خبرني أبو داود المطران – وهو عارف باللغتين العربية والسريانية – أنه إذا نقلَ الألفاظ الحسنة إلى السرياني، قبُحت وخسَّت، وإذا نُقل الكلام المختار من السرياني إلى العربي، ازداد طلاوةً وحُسنًا[٩٢]"

وفي هذا دليلٌ على ما تمتلكه اللغةُ العربية من طاقاتٍ هائلة، ومؤهلات مطلقة: صوتية، وصرفية، ومعجمية، ونحوية، وبلاغية، ودلالية.

ومن الطَّريفِ ما ذكره محمد الخضر حسين قال: ("كتب جون فرن) (قصةً خيالية بناها على سياح يخترقون طبقاتِ الكرة الأرضية حتى يصلوا أو يدنوا من وسطِها، ولما أرادوا العودةَ إلى ظاهرِ الأرض بدا لهم هنالك أن يتركوا أثرًا يدلُّ على مبلغِ رحلتهم، فنقشوا على الصخرِ كتابة باللغة العربية، ولما سُئل) جون فرن (عن

[٩٢] سر الفصاحة، ج١ (ص١٧).

اختيارِه للغة العربية، قال: إنها لغةُ المستقبل، ولا شكَّ أنه يموتُ غيرها، وتبقى حية حتى يرفع القرآن نفسه."

وسنورد بعضَ ما قاله الغربُ عن ميزات لغتنا، والفضل ما شهدت به الأعداءُ.

شهادة في حق العربية

1-قال المستشرق المجري عبدالكريم جرمانوس٩٣: "إنَّ في الإسلامِ سندًا هامًّا للغة العربية أبقى على روعتِها وخلودها، فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة، على نقيضِ ما حدث للغاتِ القديمة المماثلة كاللاتينية؛ حيث انزوت تمامًا بين جدرانِ المعابد، ولقد كان للإسلامِ قوة تحويل جارفة أثرت في الشعوبِ التي اعتنقته حديثًا، وكان لأسلوبِ القرآن الكريم أثرٌ عميق في خيالِ هذه الشعوب، فاقتبست آلافًا من الكلماتِ العربية، ازدانت بها لغاتها الأصلية، فازدادت قوةً ونماءً، والعنصرُ الثاني: الذي أبقى على اللغةِ العربية هو مرونُتها التي لا تُبارى، فالألماني المعاصر مثلاً لا يستطيع أن يفهمَ كلمةً واحدةً من اللهجةِ التي كان يتحدث بها أجدادُه منذ ألف سنة، بينما العربُ المحدثون يستطيعون فهمَ آداب لغتِهم التي كتبت في الجاهليةِ قبل الإسلام٩٤"

2-وقال المستشرق الألماني" يوهان فك"٩٥ :"إنَّ العربيةَ الفصحى لتدين حتى يومنا هذا بمركزِها العالمي أساسيًّا لهذه الحقيقة الثابتة، وهي أنَّها قد قامت في جميعِ البلدان العربية والإسلامية رمزًا لغويًّا لوحدة عالم الإسلامِ في الثقافة والمدنية، لقد برهن جبروتُ التراث العربي الخالد على أنه أقوى من كلِّ محاولةٍ يقصد بها زحزحة العربية الفصحى عن مقامِها المسيطر، وإذا صدقت البوادر ولم تخطئ الدلائلُ، فستحتفظ العربيةُ بهذا المقامِ العتيد من حيث هي لغة المدنية الإسلامية٩٦"

---

٩٣ عبد الكريم جرمانوس (١٣٠١ ـ ١٣٩٩ هـ/ ١٨٨٤ ـ ١٩٧٩ م) هو مستشرق مجري. أخذ عن فامبيري وجولد تسيهر. تعلّم جرمانوس من اللّغات : اليونانيّة، واللاتينيّة، والإنكليزيّة،

٩٤ الفصحى لغة القرآن؛ أنور الجندي (ص٣٠١).

٩٥ يوهان فك (١٨٩٤ ـ ١٩٧٤ م) هو مستشرق ألماني. من آثاره: «العربية: دراسات في اللغة واللهجات و الأساليب»

٩٦ المصدر السابق.

3–وقال" جوستاف جرونيباوم٩٧" :"عندما أوحى الله رسالته إلى رسوله محمَّدٍ – صلَّى الله عليه وسلَّم – أنزلها قرآنًا عربيًّا، والله يقول لنبيِّه :﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ [مريم: ٩٧]، وما من لغةٍ تستطيعُ أن تطاولَ اللغةَ العربية في شرفِها، فهي الوسيلةُ التي اختيرت لتحملَ رسالةَ الله النهائية، وليست منزلتها الروحية هي وحدها التي تسمو بها على ما أودعَ الله في سائرِ اللغات من قوةٍ وبيان، أمَّا السعة فالأمرُ فيها واضح، ومن يتتبع جميعَ اللغات لا يجد فيها على ما سمعته لغة تضاهي اللغة العربية، ويُضاف جمال الصوت إلى ثروتِها المدهشة في المترادفات، وتزين الدقة ووجازة التعبير لغة العرب، وتمتازُ العربيةُ بما ليس له ضريب من اليسرِ في استعمالِ المجاز، وإن ما بها من كناياتٍ ومجازات واستعارات ليرفعها كثيرًا فوق كلِّ لغة بشرية أخرى، وللغةِ خصائصُ جمَّة في الأسلوبِ والنحو ليس من المستطاع أن يكتشف له نظائر في أيِّ لغةٍ أخرى، وهي مع هذه السعة والكثرة أخصرُ اللغاتِ في إيصال المعاني، وفي النَّقلِ إليها، يبين ذلك أنَّ الصورةَ العربية لأيِّ مَثَل أجنبيٍّ أقصر في جميعِ الحالات٩٨"

4–وقال المستشرق الألماني" أوجست فيشر ٩٩– "وهو يتكلَّمُ عن العربِ والمعاجم –: "وإذا استثنينا الصِّينَ، فلا يوجدُ شعبٌ آخرُ يحقُّ له الفَخارُ بوفرةِ كتبِ علومِ لغتِه، وبشعورِه المبكرِ بحاجته إلى تنسيقِ مفرداتها، بحَسبِ أصول وقواعد غير العرب١٠٠"

وقال" هايوود" :"إنَّ العربَ في مجال المعجم يحتلُّون مكانَ المركز، سواء في الزَّمانِ أو المكان، بالنسبةِ للعالم القديمِ أو الحديثِ، وبالنسبة للشرقِ أو الغربِ١٠١"

---

٩٧ غوستاف جرونبوم (١٩٠٩ ـ ١٩٧٢ م) هو مستشرق نمسوي من أهم كتبه كتاب «إسلام العصور الوسطى» صدر في عام ١٩٤٦ م

٩٨ المصدر السابق.

٩٩ أوجست فِشَر (بالألمانية: August Fischer) (1281-1368هـ/١٨٦٥-١٩٤٨م) هو مستشرق ألماني اختص باللغة العربية. تخصص في اللغات الشرقية على يد توربكه (١٨٣٧ ـ ١٨٩٠)

١٠٠ مقدمة المعجم اللغوي التاريخي؛ أوجست فيشر.

5–وقال" كارلونلينو" :"اللغةُ العربية تفوقُ سائرَ اللغاتِ رونقًا وغنًى، ويَعجِز اللسانُ عن وصفِ محاسنها."

6–وقال" فان ديك) "الأمريكي" :(العربيةُ أكثر لغاتِ الأرض امتيازًا، وهذا الامتيازُ من وجهين؛ الأول: من حيث ثروة معجمِها، والثاني: من حيث استيعابها آدابها."

7–وقال الدكتور" فرنباغ) "الألماني" :(ليست لغةُ العربِ أغنى لغات العلم فحسب، بل إنَّ الذين نبغوا في التأليفِ بها لا يكادُ يأتي عليهم العدُّ، وإنَّ اختلافنا عنهم في الزَّمانِ والسجايا والأخلاق أقام بيننا نحن الغرباء عن العربيةِ وبين ما ألفوه حجابًا لا يتبين ما وراءه إلاَّ بصعوبة ."

8–وقال" فيلا سبازا" :"اللغةُ العربية من أغنى لغاتِ العالم، بل هي أرقى من لغاتِ أوروبا؛ لتضمنها كلَّ أدواتِ التعبير في أصولها، في حين أنَّ الفرنسيةَ والإنجليزية والإيطالية وسواها قد تحدرت من لغاتٍ ميتة، ولا تزال حتى الآن تعالِجُ رمم تلك اللغاتِ لتأخذَ من دمائِها ما تحتاجُ إليه[١٠٢]"

9–كما يقول أحد الفلاسفة الغرب عن اللغة العربية: "معجزةُ اللغةِ العربية من بين لغات العالم أنها ليس لها طفولة، وليس لها شيخوخة[١٠٣]"

4–تعتبر اللغة العربية لغة رسمية في كلِّ دول العالم العربي، ويطلق العربُ على اللغة العربية لقب: (لغة الضاد)؛ لأنَّها الوحيدةُ بين لغات العالم التي تحتوي على حرفِ الضَّاد، ويبلغ عددُ المسلمين في العالم اليوم مليارًا ونصفًا من البشرِ متعددي الألوان والعروقِ والأجناس واللغات، يربطهم باللغةِ العربية القرآن، فلا إسلام بلا قرآن، ولا قرآن بلا لغةٍ عربية.

---

[١٠١] المصدر السابق.
[١٠٢] نظر: لغتنا هويتنا؛ لرامز محيي الدين علي، المصدر: موقع ديوان العرب، بتصرف.
[١٠٣] انظر: أرشيف منتدى الفصيح (٣).

5–أنَّ اللغةَ العربية تعد أقدم اللغات الحية على وجهِ الأرض :وعلى اختلافٍ بين الباحثين حول عمر هذه اللغة؛ لا يجدُ بعضهم شكًّا في أنَّ العربيةَ التي نستخدمُها اليوم أمضت ما يزيدُ على ألفٍ وستمائة سنة.

فعلى المسلم أن يعرفَ أهميةَ هذه اللغة ومكانتها، وأنه لا غنى لنا عنها، كما يجبُ أن يعتزَّ بها لا بغيرها من اللغات كما هو الحاصل عند بعضِ النَّاسِ مع الأسف، وعلينا أن نعلمَ أنَّ اللغةَ بحرٌ لا تكفي السباحة فيه، بل أن نغوصَ في مكنونِه، ونستخرج منه المعاني الجميلة والبديعة التي تصنعه وتلبسه لباسًا جذابًا.

أجمل ما قيل عن اللغة العربية

{١}بلغت العربية بفضل القرآن من الاتساع، مدىً لا تكاد تعرفه أي لغة أخرى من لغات الدنيا.

{٢}العبارة العربية كالعود، إذا نقرت على أحد أوتاره رنت لديك جميع الأوتار وخفقت، ثم تُحَرَّك اللغة في أعماق النفس من وراء حدود المعنى المباشر مَوْكباً من العواطف والصور.

{٣}اللغة العربية هي التي أدخلت في الغرب طريقة التعبير العلمي، والعربية من أنقى اللغات، فقد تفردت في طرق التعبير العلمي والفني.

{٤} ما جَهلَ الناسُ، ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب، وميلهم إلى لسان أرسطو طاليس.. وقال أيضاً: لا يعلم من إيضاح جمل عِلْمِ الكتاب أحدُ، جَهِلَ سعة لسان العرب، وكثرة وجوهه، وجماع معانيه وتفوقها.. ومن عَلِمَها، انتفت عنه الشُّبَه التي دخلت على جهل لسانها.

{٥}اللغة العربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة، ولو لم يكن للإحاطة بخصائصها والوقوف على مجاريها وتصاريفها والتبحّر في جلائلها وصغائرها إلا قوة اليقين في معرفة الإعجاز القرآني، وزيادة البصيرة في اثبات النبوة، الذي هو عمدة الأمر كله، لكفى بهما فضلاً يحسن أثره ويطيب في الدارين ثمره.

{٦}إنّ في الإسلام سنداً هامّاً للغة العربية أبقى على روعتها وخلودها فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة على نقيض ما حدث للغات القديمة المماثلة، كاللاتينية حيث انزوت تماماً بين جدران المعابد.ولقد كان للإسلام قوة تحويل جارفة أثرت في الشعوب التي اعتنقته حديثاً، وكان لأسلوب القرآن الكريم أثر عميق في خيال هذه الشعوب فاقتبست آلافاً من الكلمات العربية ازدانت بها لغاتها الأصلية فازدادت قوةً ونماءً.. والعنصر الثاني الذي أبقى على اللغة العربية هو مرونتها التي لا تُبارى، فالألماني المعاصر مثلاً لا يستطيع أن يفهم كلمةً واحدةً من اللهجة التي كان يتحدث بها أجداده منذ ألف سنة، بينما العرب المحدثون يستطيعون فهم آداب لغتهم التي كتبت في الجاهلية قبل الإسلام.

{٧}عندما أوحى الله رسالته إلى رسوله محمد أنزلها قرآناً عربياً والله يقول لنبيّه فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لدّاً.

{٨}وما من لغة تستطيع أن تطاول اللغة العربية في شرفها، فهي الوسيلة التي اختيرت لتحمل رسالة الله النهائية، وليست منزلتها الروحية هي وحدها التي تسمو بها على ما أودع الله في سائر اللغات من قوة وبيان، أما السعة فالأمر فيها واضح، ومن يتّبع جميع اللغات لا يجد فيها على ما سمعته لغة تضاهي اللغة العربية، ويُضاف جمال الصوت إلى ثروتها المدهشة في المترادفات.. وتزيّن الدقة ووجازة التعبير لغة

العرب، وتمتاز العربية بما ليس له ضريب من اليسر في استعمال المجاز، وإن ما بها من كنايات ومجازات واستعارات ليرفعها كثيراً فوق كل لغة بشرية أخرى، وللغة خصائص جمّة في الأسلوب والنحو ليس من المستطاع أن يكتشف له نظائر في أي لغة أخرى، وهي مع هذه السعة والكثرة أخصر اللغات في إيصال المعاني، وفي النقل إليها، يبيّن ذلك أن الصورة العربية لأيّ مثل أجنبيّ أقصر في جميع الحالات.

{٩}كيف يستطيع الإنسان أن يُقاوم جمال هذه اللغة ومنطقها السليم، وسحرها الفريد ؟ فجيران العرب أنفسهم في البلدان التي فتحوها سقطوا صَرْعَى سحر تلك اللغة.

{١٠}ما ذَلّت لغةُ شعبٍ إلا ذلّ، ولا انحطَّت إلا كان أمرُهُ فى ذهابٍ وإدبارٍ، ومن هذا يفرِضُ الأجنبيُّ المستعمرُ لغتَه فرضاً على الأمةِ المستعمَرَة، ويركبهم بها ويُشعرهم عَظَمَته فيها، ويَستَلحِقُهُم من ناحيتها، فيحكم عليهم أحكاماً ثلاثةً في عملٍ واحدٍ: أما الأولُ: فحبْسُ لغتهم فى لغتِهِ سِجناً مؤبداً.. وأما الثاني: فالحكمُ على ماضيهم بالقتل محواً ونسياناً.. وأما التالثُ: فتقييدُ مستقبلهم في الأغلالِ التي يصنعُها، فأمرهم من بعدِها لأمرِهِ تَبَعٌ.. إن اللغة مظهر من مظاهر التاريخ.. والتاريخ صفة الأمة، كيفما قلَّب أمر الله، من حيث اتصالها بتاريخ الأمة واتصال الأمة بها وجدتها الصفة الثابتة التي لا تزول إلا بزوال الجنسية وانسلاخ الأمة من تاريخها.

{١١}إنما القرآن جنسية لغوية تجمع أطراف النسبة إلى العربية، فلا يزال أهله مستعربين به، متميزين بهذه الجنسية حقيقةً أو حكماً.

{١٢}إن المثقفين العرب الذين لم يتقنوا لغتهم ليسوا ناقصي الثقافة فحسب، بل في رجولتهم نقص كبير ومهين أيضاً.

{١٣}إن العربية الفصحى لتدين حتى يومنا هذا بمركزها العالمي أساسياً لهذه الحقيقة الثابتة، وهي أنها قد قامت في جميع البلدان العربية والإسلامية رمزاً لغوياً لوحدة عالم الإسلام في الثقافة والمدنية، لقد برهن جبروت التراث العربي الخالد على أنه أقوى من كل محاولة يقصد بها زحزحة العربية الفصحى عن مقامها المسيطر، وإذا صدقت البوادر ولم تخطئ الدلائل فستحتفظ العربية بهذا المقام العتيد من حيث هي لغة المدنية الإسلامية.

سؤال وجوابة:

سؤال أطلقه أحد المفكرين، وهو:

هل تصلح اللغة العربية التي كانت وعاءً لحضارة زاهية خلال قرون عدة في الماضي، أن تكون وعاءً لحضارة أخرى كالحضارة المعاصرة؟

الإجابة:

والواقع أن السؤال يحمل في طياته الجواب، أو بتعبير أدق :جوهر الجواب وهو أن اللغة التي كانت وعاء لحضارة زاهية في الماضي لن يُعجزها أن تستجيب لمُواضعات الحضارة المعاصرة، لِما في هذه اللغة من مرونة واتساع وتعدُّد الوسائل، والقابلية للنموِّ، "وقد عقد القدماء من علماء العربية فصولاً مستفيضة في كتبهم لبحث عدة مسائل من اللغة، تدور كلها حول ظاهرة واحدة هي نمو اللغة في ألفاظها وأساليبها، ووسائل هذا النمو"[١٠٤]

[١٠٤] د. إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة (ص: ٦).

سمات اللغة العربية

السعة والمرونة

يقول المستشرق "أرنست رينان[١٠٥]" في كتابه "تاريخ اللغات السامية" :"من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القوية، وتصل إلى درجة الكمال عند أمَّة من الرُّحَّل، تلك اللغة التي فاقت أخواتها؛ بكثرة مفرداتها، ودقة معانيها، وحسن نظام مبانيها[١٠٦]"

وينقل عن "وليم ورك" قوله: "إن للعربية لينًا ومرونةً يمكِّنانها من التكيف وفقًا لمقتضيات العصر"[١٠٧]

وتمتاز اللغة العربية بعدد من السمات والخصائص، من أهمها: السعة والمرونة:

يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه في أوائل الرسالة: "لسان العرب أوسع الألسنة مذهبًا، وأكثرها ألفاظًا، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبي"[١٠٨]، ويؤكد المنصفون من علماء العرب والغرب أن اللغة العربية تمتاز عن سائر أخواتها من اللغات السامية، وغيرها من لغات البشر، بوفرة كلماتها، والاطراد في قياس أبنيتها، وتنوع أساليبها، وعذوبة منطقها، ووضوح مخارجها... إلخ، يقول "بروكلمان": "معجم العربية اللغوي لا يجاريه معجم في ثرائه، إنه نهر"[١٠٩]، وأكد الألماني "فريتاغ" ذلك بقوله: "اللغة العربية أغنى

---

[١٠٥] أرنست رينان ولد في ٢٨ فبراير ١٨٢٣ مؤرخ وكاتب فرنسي اشتهر بترجمته ليسوع التي دعا فيها إلى نقد المصادر الدينية نقدًا تاريخيًا علميًا وإلى التمييز بين العناصر التاريخية والعناصر الأسطورية الموجودة في الكتاب المقدس. ما أدّى إلى قيام الكنيسة الكاثوليكية بمعارضته توفي في ٢ أكتوبر ١٨٩٢، باريس، فرنسا.

[١٠٦] الجندي، أنور، اللغة العربية بين حماتها وخصومها، (ص ٢٥)، ومجلة اللسان العربي (٨٥/٢٤).

[١٠٧] نقلاً عن مجموعة مقالات نشرت على (شبكة الألوكة) على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت).

[١٠٨] الشافعي، الرسالة، (ص٢٨)، وينظر: السيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها (٥٢/١ - ٥٣).

[١٠٩] ينظر: فقه اللغات السامية (ص٣١).

لغات العالم"، ويقول "الإسباني "فيلا سبازا": "اللغة العربية من أغنى لغات العالم، بل هي أرقى من لغات أوروبا؛ لأنها تتضمن كل أدوات التعبير في أصولها"[١١٠].

ويصف "فيكتور بيرار" اللغة العربية في القرن الرابع الهجري، بأنها أغنى، وأبسط، وأقوى، وأرق، وأمتن، وأكثر اللهجات الإنسانية مرونةً وروعةً، فهي كنز يزخر بالمفاتن، ويفيض بسحر الخيال، وعجيب المجاز، رقيق الحاشية، مهذب الجوانب، رائع التصوير[١١١].

والذي أبقى على اللغة العربية هو مرونتها التي لا تُبارى، فالألماني المعاصر – مثلًا – لا يستطيع أن يفهم كلمةً واحدةً من اللهجة التي كان يتحدث بها أجداده منذ ألف سنة، بينما العرب المُحدَثون يستطيعون فهم آداب لغتهم التي كُتبت في الجاهلية قبل الإسلام[١١٢].

كما أن اللغة العربية تتميز بثبات الأصول، ومرونة الفروع، وثبات أصول الألفاظ، ومحافظتها على روابطها الاشتقاقية يقابل استمرار الشخصية العربية خلال العصور، فالحفاظ على الأصل واتصال الشخصية واستمرارها صفة يتصف بها العرب، كما تتصف بها لغتهم، إذ تُمكِّن الخاصية الاشتقاقية من تمييز الدخيل الغريب من الأصيل، وبهذه المرونة عولجت مسألة المصطلحات، وقد لاحظ "ألفرد غيوم" هذه الخصائص، فعلق عليها بقوله: "صلح اللسان العربي للتعبير عن العلاقات بإيجاز أكثر من اللغات الآرية؛ لمرونته، وقابليته الاشتقاقية الفائقة في الاسم والفعل"[١١٣]، فاللغات الأوربية تتغير معاجمها بين الحين

---

[١١٠] ينظر: اللغة العربية، ولسان الحال من علماء الغرب، موقع جمعية الترجمة العربية وحوار الثقافات، بتاريخ: ٢٠٠٩/٢/٣م.

[١١١] ينظر: العلمي، إدريس بن الحسن، "اللغة العربية وآراء المفكرين الغربيين"، موقع صوت العربية على شبكة المعلومات الدولية.

[١١٢] الجندي، أنور، الفصحى لغة القرآن (ص ٣٠١).

[١١٣] النبهان، عبدالإله أحمد، بحوث في اللغة والنحو والبلاغة (ص٥٤).

والحين، ولا يمر قرن واحد إلا ويصيبها تغيير أساسي في مفرداتها وقواعدها، بينما للعربية قدرتها الفائقة على استخدام أكثر من طريقة لتثبيت ألفاظ جديدة في قاموسها؛ كالقلب المكاني، والنحت، والتعريب، وغيرها.

ومن مرونتها كذلك: الظواهر الصوتية؛ من إبدال، وإدغام، وإظهار، وإخفاء، ورَوْمٍ، وإشمام، وأيضًا: كاسم المكان والزمان، والسببية، والحرفة، والأصوات، والآلة، والتفضيل... إلخ، تلك المرونة التي أتاحت لها أن تغدو لغة الحضارة في القرون الوسطى.

الإيجاز والاختصار

على الرغم من السمة السابقة – سعة العربية ومرونتها إلا أن من سماتها أيضًا" :الإيجاز والاختصار"، والاختصار والإيجاز صفة واضحة في اللغة العربية، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: ((أوتيتُ جوامعَ الكلم))[١١٤] ، ويقول العرب" :خير الكلام ما قلَّ ودلَّ"، وأوجه الاختصار فيها كثيرة[١١٥]؛ منها:

1-الإيجاز في الحرف:

حيث تكتب الحركات في العربية عند اللبس فوق الحرف أو تحته، بينما في اللغات الأجنبية تأخذ حجمًا يساوي حجم الحرف أو يزيد عليه، وقد نحتاج في اللغة الأجنبية إلى حرفين مقابل حرف واحد في العربية

---

[١١٤] البيهقي، شعب الإيمان، (٢ /١٦٠)، رقم (١٤٣٥).
[١١٥] ينظر: جاد الكريم، عبدالله أحمد، الاختصار سمة العربية، ط مكتبة الآداب، القاهرة ٢٠٠٦م.

لأداء صوت معين؛ كالخاء (KH) مثلاً، وفي العربية إشارة نسميها (الشدة)، نضعها فوق الحرف لندل على أن الحرف مكرر أو مشدد؛ أي: إنه في النطق حرفان، وبذلك نستغني عن كتابته مكررًا، ونحن في العربية قد نستغني كذلك بالإدغام عن كتابة حروف بكاملها، وقد نلجأ إلى حذف حروف، فنقول: (عمَّ) عوضًا عن (عن ما)، و: (ممَّ) عوضًا عن (من ما)، و: (بِمَ) عوضًا عن (بما)، ومثلها (لِمَ) عوضًا عن (لما).

2-الإيجاز في الكلمات:

وهذه أمثلة لعدد حروف بعض الكلمات في العربية والفرنسية والإنجليزية:

		m
		b1

٣- الإيجاز في التراكيب:

الجملة والتركيب في العربية قائمان أصلاً على الإيجاز، ففي الإضافة يكفي أن تضيف الضمير إلى الكلمة، وكأنه جزء منها: كتابه (son livre)، كتابهم (leur livre)، وأما إضافة الشيء إلى غيره فيكفي في العربية أن نضيف حركةً إعرابيةً؛ أي: صوتًا بسيطًا إلى آخر المضاف إليه، فنقول: (كتاب التلميذ، ومدرسة التلاميذ)، على حين نستعمل في الفرنسية أدواتٍ خاصةً لذلك، فنقول: (le livre de l'élève،l'école des élèves)، وأما في الإسناد؛ فيكفي في العربية أن تذكر المسند والمسند

إليه، وتترك لعلاقة الإسناد العقلية المنطقية أن تصل بينهما بلا رابطة ملفوظة أو مكتوبة، فنقول مثلاً: (أنا سعيد)، على حين أن ذلك لا يتحقق في الفرنسية أو الإنكليزية، ولا بد لك فيهما مما يساعد على الربط، فتقول: ((je suis heureux، I am happy))، وبناء الفعل للمجهول يكفي في العربية أن تغير حركة بعض حروفه، فتقول: (كُتِبَ) على حين نقول بالفرنسية: (il a été écrit)، وفي الإنكليزية: (it was written).

وفي العربية إيجاز يجعل الجملة قائمةً على حرف: (فِ) من (وفى يفي)، و(عِ) من (وعى يعي)، و(قِ) من (وقى يقي)، فهذه الحروف إنما تشكل في الحقيقة جملةً تامةً؛ لأنها فعل، وقد استتر فيها فاعلها وجوبًا، وفي العربية ألفاظ يصعب التعبير عن معانيها في لغة أخرى بمثل عددها من الألفاظ؛ كأسماء الأفعال؛ في العربية: (هيهات)، وفي الإنكليزية(it is too far) :، و: (شتان there is a great) (difference)، وحرف الاستقبال؛ مثل: (سأذهب) (I shall go) . والنفي أسلوب في العربية يدل على الإيجاز: نقول: (لم أقابله)، وفي الإنكليزية I did not meet) : him)، وفي الفرنسية(Je ne l’ai pas rencontré) :، وفي العربية: (لن أقابله)، والإنكليزية I) : will never meet him)، والفرنسيةJe ne le rencontrerai) : jamais).

٤– الإيجاز في اللغة المكتوبة:

فمثلاً سورة (الفاتحة) المؤلفة في القرآن من (٣١) كلمةً استغرقت ترجمتها إلى الإنكليزية (٧٠) كلمةً، ويقول الدكتور يعقوب بكر: "إذا ترجمنا إلى العربية كلامًا مكتوبًا بإحدى اللغات الأوروبية كانت الترجمة العربية أقلَّ من الأصل بنحو الخُمس أو أكثر"[١١٦]

اللغة العربية والقرآن الكريم

القرآن رسالة السماء إلى الأرض، فمن أراد أن يفهمه على هذا النهج فقد وقف بنفسه على مواطن العظمة، ومواضع الإعجاز فيه. ومن أراد أن يعرف أثره في اللغة العربية فلينظر ذلك الأثر في حياة المسلمين عقيدة وسلوكاً، ليرى ذلك واضحاً وجليًّا .

ولكن قد تَقْصُر الأفهام عن المراد من آية من آياته، فيُظَنُّ أنها جاءت على غير ما تعارف عليه أهل اللغة. وقد يَعْجَز البصر عن الوصول إلى إعجاز نحوي جاء في أثناء آية، فيذهب الظن إلى أن القرآن قد تجاوز قواعد اللغة وما تعارف عليه أهلها، وهذا –لاشك– قصور وعجز في الإنسان عن إدراك لغة القرآن وأساليبه البيانية، فهو كتاب رب العالمين، ومحال أن يناله تجاوز أو خطأ أو مجافاة للذوق اللغوي، فضلاً عن أنه أساس اللغة العربية، ومنه تُستنبط القواعد اللغوية .

وفي هذه العجالة سوف نأتي على بعض الأمثلة، التي قد يُظن أن فيها خطأ نحويًّا، أو أنها تجافي لسان العرب ومعهودهم، ونبين توجيه العلماء لها .

[١١٦] ينظر كتاب: العربية لغة عالمية، نشر الأمانة العامة لجامعة الدول العربية بالقاهرة ١٩٦٦م.

المثال الأول: قوله تعالى :{إنَّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون) {آل عمران:٥٩) والإشكال الذي قد يَرِد هنا، قوله تعالى} :فيكون {حيث جاء الفعل مضارعاً، مع أن الحَدَثَ قد حصل وانتهى. وأُجيب عن هذا بأن الفعل جاء حكاية لحال ماضية، فيجوز فيه الوجهان، فلا إشكال إذن.

المثال الثاني: قوله تعالى :{إنَّ رحمت الله قريب من المحسنين) {الأعراف:٥٦) والسؤال: لماذا جاءت الصفة وهي قوله تعالى :{قريب {مخالفة للموصوف، وهو قوله} :رحمت {مع أن الأصل موافقة الصفة للموصوف، تذكيراً وتأنيثاً؟ وأجيب عن هذا بأجوبة نختار منها اثنين:

-أن {قريب} {صفة لموصوف محذوف، تقديره: شيء قريب}.

-أنَّ {قريب {على وزن فعيل، وما كان كذلك فيصح أن يوصف به المذكر والمؤنث. ومثل هذه الآية أيضاً، قوله تعالى :{لعل الساعة قريب) {الشورى:١٧) والتقدير في الآية: لعل مجيء الساعة قريب؛ وهذا جائز بلا خلاف يُذكر.

المثال الثالث: قوله تعالى :{والله ورسوله أحق أن يرضوه) {التوبة:٦٢.(والسؤال، لماذا جاء الضمير في قوله تعالى :{يرضوه {بصيغة المفرد؟ وأُجيب عن ذلك بأنه لا فرق ولا تفاوت بين رضا الله تعالى، ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم، فكانا في حكم مَرْضيٍّ واحد، كقولك: إحسان زيد وإكرامه نعشني وجَبَرَ مني. ولك أن تقول: هو من باب التقديم والتأخير، وعلى هذا يكون المعنى: والله أحق أن يرضوه، ورسوله كذلك. وهذا من البلاغة أيضاً، فتنبه إليه.

المثال الرابع: قوله تعالى :{فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابت الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم

هذا وهم لا يشعرون) {يوسُف:١٥) فإن قلت: أين جواب "لمَّا" ؟ قلنا: جوابها محذوف؛ لاستطالة الكلام مع أمن الالتباس، ولأن في الآية ما يدل عليه، وهو قوله تعالى} :وأوحينا إليه {والحذف أولى من الإثبات، للوجازة والبلاغة.

المثال الخامس: قوله تعالى :{هذان خصمان اختصموا في ربهم) {الحج:١٩) قد يُشْكِل في الآية مجيء الفعل}اختصموا {بصيغة الجمع، مع أن الفاعل} خصمان {قد جاء بصيغة المثنى. وأجابوا عن ذلك، بأن قوله تعالى} :هذان خصمان {هو لفظ، فكل خصم فريق، وكل فريق مؤلَّف من عدد من الخصماء، وقوله : }اختصموا {هو للمعنى –وهو مجموع الخصماء– لا للفظ –وهو الخصمان– فناسب أن يقول : }اختصموا {لأن كل فريق من الذين كفروا والذين آمنوا كبير. وليس في شيء من هذا ما تأباه اللغة، وذلك ظاهر لمن خَبُر العربية وتذوقها.

المثال السادس: قوله تعالى :{إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما) {التحريم:٤) الخطاب في الآية لأُمِّ المؤمنين عائشة وحفصة، رضي الله عنهما، واستعمال الجمع في قوله :{قلوبكما} {مكان المثنى أو المفرد أو العكس أمر وارد وصحيح في اللغة، على سبيل النيابة، أي يُذكر الجمع ويُراد به المثنى أو المفرد. ووجَّه بعض العلماء الآية بأن أقلَّ الجمع اثنان، وعلى هذا التوجيه فلا إشكال حينئذ. وهكذا يتضح بكل جلاء أنه لا تعارض بين ما جاء في القرآن الكريم وبين بعض القواعد التي أصَّلها أهل اللغة والنحو، وإن كان شيء من هذا القبيل، فمردُّه إما إلى الاختلاف في نفس القاعدة، وإما إلى الجهل بأساليب اللغة العربية، التي هي في الأساس مستخْلَصة من لغة القرآن، ولاشك أن كتاب الله هو الحجة

البالغة، والمرجع الأساس في جواز شيء من الكلام، أو عدم جوازه، لذا كان أحق أن يُتَّبع، والله يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

.

خصائص اللغة العربية ومميزاتها

اللغة مرآة الفكر واداته، وثمرة العقل ونتاجه، ثم هي معرض الثقافة الإنسانية وحضارتها، ووسيلة للتواصل البشرى يعبر بها الإنسان عما يختلج في صدره من أفكار ومشاعر، اما اللغة العربية فهي واسطة عقد اللغات العالمية لمسايرتها الزمن وطواعيتها للنمو والتقدم، وقدرتها الفطرى علي التعبيرعن الذات والموجودات، وفوق ما تتصف انها لغة رسالة الله الخالدة، ووعاء سنة نبيه المطهرة، ومعلم في طريق العلم، ومفتاح التفقّه في الدين، تنتمي اللغة العربية إلى أسرة اللغات السامية المنبثقة من مجموعة اللغات الأفريقية الآسيوية، منها الكنعانية كما منها الآرامية والعربية، إلا أن العربية أكثر اللغات السامية تداولا واكثرها انتشارا واستخدامًا، وذلك لاحتفاظها علي مقومات اللغة السامية الأم أكثرمن أي لغة سامية أخرى، فالعربية لغة نابضة متدفقة يتحدثها عشرات الملايين كلغة رسمية وكذلك مئات الملايين كلغة دينية، وقد تمتعت هذة اللغة بخصائصها العجيبة ومعجزاتها الفريدة منها الخصائص الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية كما منها خصائص حروفها وإعرابها، وتعدد ابنيتها وصيغها، ووفرة مصادرها وجموعها وجودة مفرداتها واشتقاقها والدقة في تعابيرها وتراكيبها، وفي ذلك يقول ارنست رينان العالم الفرنسي: «إن هذه اللغة قد بلغت حد الكمال في قلب الصحراء عند أمة من الرحل ففاقت اللغات بكثرة مفرداتها، ودقة معانيها، وحسن نظام مبانيها»، كما يقول عبد الرزاق السعدي أحد أعلام اللغة والأدب: «العربية لغة كاملة

معجبة تكاد تصورالفاظها مشاهد الطبيعة، وتمثل كلماتها خطوات النفوس، وتكاد تنجلي معانيها في أجراس الألفاظ، كأنما كلماتها خطوات الضمير، ونبضات القلوب، و نبرات الحياة».[١١٧]

استكمال لخصائص اللغة العربية:

تتميز اللغة العربية بخصائص فريدة لا تتوفر لسِواها من اللغات مثل: فصاحة الكلم، وعذوبة اللفظ، وجزالة التراكيب، ورقّة العبارة، ودقّة الدلالة، والقدرة على التوليد والاشتقاق، واتصالها الوثيق بعناصر الطبيعة، فبعض ألفاظها تحاكي أصوات الطبيعة والإنسان والحيوان، ومِن خصائصها اتصالُها بالجماعة، لأنّ العربَ عاشوا في بيوتٍ تجتمع في أفخاذ وبطون وقبائل، وعلى هذه الجماعة جرى لسان العرب وكلامهم، فالألفاظ أيضاً بينها نَسَبٌ وقربى، ولها جذور وأصول تتفرع عنها المشتقات لتشكلَ معاً قبيلة كاملة. ومن خصائصها أيضاً كثرة المترادفات والعلاقات بين المفردات، وتشابه الألفاظ واختلاف معانيها، والدقة البالغة في الدلالة التي يُدركها أبناء اللغة بسهولة. فمِن دِقة الدلالة اختلاف المعنى باختلافِ حرف أو حركة، ومثال ذلك كلِمتا: (القانتين ، القانطين) فلكلٍ منهما معنى مختلف وبعيد عن الآخر، فدلالة القانتين الخاشعين، ودلالة القانطين اليائسين، وشتّانَ ما بين المعنيين. ومن الدقة كذلك قوله تعالى: " إنمّا يخشى اللهَ من عباده العلماءُ " فاختلاف حركة لفظ الجلالة مِن الفتح إلى الضم تقلبُ المعنى وتجعله غيرَ مقصود

[١١٧] عبد الرزاق السعدي، مقومات العالمية في اللغة العربية وتحدياتها في عصر العولمة، بحث منشورفي مجلة آفاق الثقافة والتراث،العدد الثالث والستون،١٤٢٩، ص/٤٧.

ولا مُستساغ. ومنه أيضاً قول أحد شعراء الخوارج مخاطباً عبد الملك بن مروان :

(ومِنا سُويدٌ والبطينُ وقعنبٌ ومِنا أميرَ المؤمنين شبيبُ)

فجَعْلُ الشاعرِ أميرَ المؤمنين منادى أنقذه من القتل، وكان عبد الملك قبل ذلك يفهم الكلمة على أنها معطوفة على ما قبلها، وفي هذا اختلاف في القصد كبير(ابن قتيبة،١٩٨٣).

ومِن دِقة الوقف في قول الله تعالى: " ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين" البقرة، ٢. إذ يجوز الوقفُ على كلمة (ريب)، ويتم المعنى بحذف خبر لا النافية للجنس، وتكون جُملة (فيه هدى للمتقين) جملةً جديدة، كما يجوز الوقف على كلمة (فيه)، فيتم خبر لا النافية للجنس، وتكون جملة (هدى للمتقين) اسمية حُذِفَ منها المبتدأ وتقديره: هو هدى للمتقين.

من خصائص العربية في مدلولات ألفاظها

مِن خصائص اللغة العربية في مدلولات ألفاظِها: أن اللفظ كثيرًا ما يَرِدُ عامًّا، فيُفيد الشمول، فيدل على أفرادٍ كثيرين غير محصورين، وقد يطرأ عليه ما يُخرج بعضَ الأفراد، أو يَرِدُ ما يظهر أن العموم غيرُ مراد، فلا يعود المعنى الشرعي واقعًا على كل الأفراد.

وقد خاطَب الله سبحانه بشريعته العربَ بلسانها، على ما تعرف من معانيها، فبدَتْ في نصوص الكتاب والسنَّة خاصة إفادة الشمول، وأن العموم قد يراد وقد لا يراد، فكان لا بد في استنباط الأحكام من تلك النصوص مِن معرفة العام، في: ماهيته، وألفاظه، وأقسامه، ونوع دلالته على الحُكم، وأبعاد شموله لما تحته

من أفراد، وما قد يطرأ على ذلك[118]

ماهية العام:

قال ابن فارس[119] العام: الذي يأتي على الجملة – أي: جماعة الشيء – لا يغادر منها شيئًا[120]، وذلك كقول الله – عز وجل :– ﴿ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ ﴾ [النور: ٤٥]؛ فهو في اللغة الشامل لأمرٍ متعدد، سواء كان لفظًا أو غيره، ومنه قولهم: عمَّهم الخيرُ، إذا شملهم وأحاط بهم، ويقال: مطر عام؛ أي: شمل الأمكنةَ كلها[121].

اما في اصطلاح الأصوليين :فإنه يتخذ مفهومًا آخر محددًا، وقد كثُرت تعريفاتهم له، منها: أن (العام لفظ واحد، يستغرقُ جميع ما يصلُحُ له بوضع واحد من غير حصرٍ[122]).

ويلاحظ أن أغلب الأصوليين يقصُرون العام على الألفاظ دون المعاني[123]، والتعريفات التي تحده بكلمة (ما) تحتمل التفسير بلفظ، أو بأمر، فتشمل حينئذٍ الألفاظَ والمعاني، ومن تعريفاتهم له: (العام: عبارة عن اللفظ الواحد الدالِّ من جهة واحدة على شيئين فصاعدًا[124]) ، وأنه: ما دل على مسمَّيات باعتبار أمرٍ اشتركت فيه مطلَقًا.

دلالة العام على معناه:

[118] تفسير النصوص في الفقه الإسلامي؛ د. محمد أديب صالح (٢/٢٧٥ - ٢٧٦).
[119] هو أبو الحسين أحمد بن فارس اللغوي، من أئمة العربية، من أشهر مصنفاته: كتاب: معجم مقاييس اللغة، والصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، توفي عام ٣٩٥هـ؛ (انظر في ترجمته: إنباه الرواة (١/٩٢)
[120] الصاحبي في فقه اللغة؛ لابن فارس، تحقيق د. مصطفى الشويمي، ص (١٧٨ - ١٧٩).
[121] تاج العروس شرح القاموس؛ للزبيدي (٨/٤١١).
[122] جمع الجوامع؛ لتاج الدين السبكي ص (٣٩٩)، وأصول الفقه؛ لأبي زهرة (١٥٦).
[123] فواتح الرحموت (١/٢٥٨).
[124] المستصفى؛ للغزالي (٢/٣٢).

إن كان قبل التخصيصِ كانت الدلالةُ مطابقةً، وإن كانت بعده كانت تضمُّنًا، فقوله تعالى :﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾[التوبة: ٥]، لفظ :(المشرِكين) يدلُّ مطابقة على كل أفرادهم، وبعد أن خُصِّص بقوله تعالى :﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾ [التوبة: ٦]، وباستثناء الشيوخ والعَجَزة، أصبحت دلالتُه على المشركين – أي: على ما تبقى من أفراد العام – دلالةَ تضمُّن.

وقد يدل العام على لازمٍ له، مثل دلالة قوله تعالى :﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، إذا قلنا: إن الألفَ واللام في) المولود له (للاستغراق، فإنها للعموم، ودلالة اللفظ على أن النَّسب للآباء دلالة التزام١٢٥.

ومن أمثلة العام: لفظ) :السارق (و)السارقة(، في قوله تعالى :﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾]المائدة: ٣٨]، فإنه عام؛ لأنه موضوعٌ وَضْعًا واحدًا ليدلَّ على شمولِ واستغراق كل سارق وسارقة، من غير حصر في عدد معين، فكل من صدق عليه) أنه سارق قُطِعت يده١٢٦.

وقد ضرَب الشافعي أمثلة للعام، منها: قوله تعالى :﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾]الزمر: ٦٢]، وقوله :﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾]الأنعام: ١]، وقوله :﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾]هود: ٦]، ثم قال: (فكلُّ شيء مِن سماءٍ وأرض وذي رُوح وشجر وغير ذلك، فالله خلَقه، وكل دابة فعلى الله رزقُها، ويعلَم مستقرَّها ومستودعَها١٢٧.

---

١٢٥ فواتح الرحموت (٤٠٧/١).
١٢٦ أصول البزدوي (٣٣/١)، وإرشاد الفحول ص (١٠٥)، وأصول الفقه؛ لخلاف (٢١٢).

١٢٧ الرسالة؛ للشافعي ص (٥٣).

العام من حيث شمولُه لأفراده:

الأصوليون – نتيجة استقرائهم النصوصَ الشرعية، وإدراكهم أساليبَ الخطاب فيها، وفي اللغة العربية عمومًا – أن العامَّ يتنوع – حسَب شموله لأفراده – إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول :ما أريدَ به العام قطعًا، وهو ما وُضِع عامًّا، واستُعمِل عامًّا، ويكون مصحوبًا بقرينة تنفي احتمال تخصيصه؛ فالعام الوارد في نصٍّ بهذه الصورة عمومُه قطعي، ويشمل كل ما يستغرقه من أفراده؛ كما في قوله تعالى :﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود: ٦]، وقوله سبحانه :﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ [الأنعام: ١]، ففي كلٍّ منهما تقريرُ سُنة إلهية لا تتبدَّل، ولا يطرأ عليها التخصيصُ؛ لذا كان العموم مقطوعًا به في كل منهما، وفي أمثالهما، ولا يحتمل أن يراد به الخصوص[١٢٨].

ويتنوَّع عند ابن حزم هذا القسم من العام إلى ما يكون لجنس يعمُّ أنواعًا كثيرة؛ كقوله تعالى :﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، ومنه ما يكون اسمًا لنوعٍ يدخل تحته جميعُ أفراد ذلك النوع؛ كقوله تعالى :﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ [النحل: ٨]، ومنه ما يقعُ لأهل صفةٍ ما من النوع؛ كقوله

[١٢٨] الرسالة؛ للشافعي (٥٤).

تعالى :﴿ وَلِذِي الْقُرْبَى ﴾ [الأنفال: ٤١]، وقوله تعالى :﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ [التوبة: ٦٠]، وغير ذلك[١٢٩].

ويعقِّب ابن حزم على كل من ذلك بقوله: (ومعنى ذلك حمله على كل ما يقتضيه لفظُه)، وعقب على الأول: (فيقع تحت الحيِّ المذكور: الإنسُ، وأنواعُ الطير كلها، وأنواع ذوات الأربع كلها، وأنواع الهوامِّ كلها)، وعلى الثاني بقوله: (فهذا عموم لجميع الخيل والبغال والحمير، دون سائر الأنواع، وليس خصوصًا؛ لأن معنى قولنا :(عمومًا)، إنما هو ما اقتضَتْه اللفظة فقط، دون ما لا تقتضيه)، وعلى الثالث بقوله: (فكان هذا عمومًا لذي القربى كلهم دون غيرهم، وكان شاملاً لكل من وقعت عليه هذه التسمية بهذه الصفة[١٣٠].

ويندر وجودُ العام الباقي على عمومه؛ ولذلك شاع عند العلماء أنه :(ما من عام إلا وقد خص منه البعض)، حتى ادَّعى بعضهم عدم وجوده، وعندما ردَّ آخرون على هؤلاء مستشهدين بمثل ما تقدَّم من أمثلة، أجاب النافُون: إن تلك الأمثلة، وإن كانت باقيةً على عمومها، فإنها ليست من الأحكام الفرعية؛ ذلك أن مراد القائل بعدم بقاء العام على عمومه، ما كان فيه حُكم عملي، وليس مطلق العموم، لكن هذا منقوض بقوله تعالى :﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣]، (فإنه لا خصوصَ فيه[١٣١]) ، وهي مِن الأحكام العملية الفرعية؛ حيث الحُكمُ فيها باقٍ على عمومه مطلقًا.

---

[١٢٩] الإحكام في أصول الأحكام؛ لابن حزم الظاهري (١٢٨/٣).

[١٣٠] الإحكام؛ لابن حزم (١٢٨/٣).

[١٣١] الإتقان في علوم القرآن؛ للسيوطي (٥٠/٣).

فتبيَّن سببُ قولهم: (ما من عام إلا ويُتخيل فيه التخصيص)[١٣٢] ؛ وذلك في المبالغة في قِلَّته وندرته، وخاصة في النصوص المتعلقة بالأحكام الشرعية العملية، والنادر القليل في حُكم المعدوم[١٣٣].

النوع الثاني: عام يراد به الخصوص قطعًا، وهو أن يطلق العام، ويدلَّ دليل على أن المراد به بعضُ ما يتناوله من أفراده كلهم، وهو ما وُضِع في الأصل عامًّا، ثم خُصَّ في الاستعمال ببعض أفراده، ومثاله لفظ (السبت) ، فهو في اللغة :(الدهر)، ثم خص في الاستعمال لغةً بأحدِ أيام الأسبوع، وهو فردٌ من أفراد الدهر [١٣٤].

وقد اتفقوا على ظنِّية دلالة هذا الصنف؛ وذلك لأن تخصيصه غالبًا ما يكون قائمًا على عِلَّة قد تتحقق في بعض الأفراد الباقين بعد التخصيص[١٣٥].

وقد مثَّلوا لهذا القسم بقوله تعالى :﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾]آل عمران: ٩٧]، فلفظ) الناس (عام يشمل: المكلَّفين، وغيرهم؛ كالأطفال والمجانين، ولكن هذا عام أريدَ به خصوص المكلَّفين، بحيث يخرج من التكليف الصبي والمجنون، فتخصيص العام بالعقل هنا قطع بأن العام – وهو (الناس)– (أريد منه الخصوص، ومثله قوله تعالى :﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ [التوبة: ١٢٠]، فكل من أهل المدينة (و)الأعراب (عام أريدَ به خصوصُ القادرين)؛ لأن العقل يقضي بخروج العَجَزة من الخطاب، فعمَّت

[١٣٢] المرجع السابق (٢١/٢).
[١٣٣] الرسالة؛ للشافعي (٣٣)، والإحكام؛ لابن حزم (٣٦٢/٣).
[١٣٤] المزهر؛ للسيوطي (٤٢٧/١).
[١٣٥] المناهج الأصولية في الاجتهاد بالرأي في التشريع الإسلامي؛ د. فتحي الدريني ص (٥٣٤).

هذه الآية مَن أطاق الجهاد من الرجال، وأن ليس لأحدهم أن يرغَبَ بنفسه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم[١٣٦].

ومنه أيضًا قوله تعالى :﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء: ٧٥]، ففي :﴿ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ عمومٌ أريدَ به الخصوص؛ لأن كل القرية – كما يقول الشافعي – لم يكن ظالِمًا، فكان فيهم المسلمون، ولكنهم كانوا فيها أقل[١٣٧]، وذلك بطريق المجاز.

ومثاله أيضًا قوله تعالى :﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٧٣]؛ ذلك لأن المراد بـ (الناس) – الأولى – جزء منهم، لا كلهم، وقد ذكر الجزء هنا بصيغة العموم؛ لأنه قام مقام الكثير في تثبيطه المؤمنين، وتأخيرهم عن ملاقاة قافلة العدو[١٣٨]؛ فاللفظ العام قد سِيق للخصوص ابتداءً، فهو من ذِكر العام وإرادة الخاص على سبيل المجاز.

ولعل هذا المثالَ والذي قبله أوضحُ في المقصود، وأجدر بالتمثيل؛ لأنهما سِيقا ابتداءً للخصوص، بينما في الأمثلة الأخرى سِيقت الألفاظ عامة، وقد خصها العقلُ بغير المستثنين من: الصبيان والمجانين وعديمي

[١٣٦] الرسالة؛ للشافعي ص (٥٤)، وأصول الفقه؛ لخلاف ص (٢١٩).

[١٣٧] الرسالة؛ للشافعي ص (٥٥).
[١٣٨] تفسير القرطبي (٤/٢٧٩) وما بعدها.

الأهلية، فلا يعدو أن يكون عامًّا خُصَّ منه البعض، غاية ما في الأمر أن دليل الخصوص هو العقلُ هنا لا غيره، وهذا وحده غير كافٍ لأن يقال: إن اللفظَ العام هنا أريدَ به الخصوص ابتداءً[١٣٩].

وقد مثَّل له الشافعي أيضًا بقوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج: ٧٣]، قال: (فمَخرَجُ اللفظ عامٌّ على الناس كلهم، وبَيِّنٌ عند أهل العلم بلسان العرب منهم أنه إنما يراد بهذا اللفظ العامِّ المَخرجِ بعضُ الناسِ دون بعضٍ؛ لأنه لا يخاطب بهذا إلاَّ مَن يدعو من دون الله إلهًا – تعالى عما يقولون علوًّا كبيرًا – لأن فيهم مِن المؤمنين المغلوبين على عقولهم، وغير البالغين ممن لا يدعو معه إلهًا[١٤٠].

ومثَّل له أيضًا بقوله تعالى :﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ ﴾ [البقرة: ١٩٩]، قال: فالعِلم يحيط – إن شاء الله – أن الناسَ كلَّهم لم يحضروا عَرَفَةَ في زمانِ رسولِ الله صلى الله عليه وآله وسلم[١٤١].

النوع الثالث: العامُّ المخصوص: وهو الذي لم تصحَبْه قرينة عند التكلم على أنه أراد به بعض أفراده، فلا قرينة على نفي احتمال تخصيصه، ولا قرينة تنفي دلالتَه على العموم، وهو ما يُعبِّر عنه الأصوليُّون بالعام الذي خُصَّ منه البعض، وذلك كقوله تعالى :﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ١ – ٣]، ونجد ذلك في أكثرِ النصوص التي

---

[١٣٩] أصول الفقه؛ لخلاف ص (١٨٥).
[١٤٠] الرسالة؛ للشافعي ص (٣٧).
[١٤١] الرسالة؛ للشافعي ص (٣٧).

ورَدَت فيها صِيَغ العموم مطلقة عن القرائن، ويبقى هذا الصِّنف ظاهرًا في العموم حتى يقومَ الدليل على تخصيصه[١٤٢]؛ كقوله تعالى :﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

وتخصيصُه إما أن يكون بمخصِّص غير مستقل، بل هو متعلِّق بما هو متقدِّم في الاعتبار؛ كـ: الاستثناء – على خلافٍ فيه – والشرط، والصفة، والغاية، وبدل البعض، وإما أن يكون مستقلاً؛ كالعقل، أو الكلام المتراخي الذي يكونُ ناسخًا للمتقدم، وقد يكون المخصِّص كلامًا – كما ذكر – وربما يكون حسًّا أو عُرْفًا، أو بنقصان بعض الأفراد أو زيادته، ولكلٍّ دلالته[١٤٣].

والفَرْق بين العامِّ الذي يراد به الخصوص، والعام المخصوص، أن الأولَ هو العامُّ الذي يرِد مصحوبًا بقرينة تدل على أن المراد به الخصوص لا العموم، وذلك كما في خطاب التكليف العام؛ كقوله تعالى :﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران: ٩٧]؛ إذ تدلُّ القرينةُ على إرادة بعضِ الأفراد المشمولة، وهذه هي الدلالةُ الظاهرة على العموم، حتى يرِدَ دليلُ التخصيص، فيكون المراد بعض أفراده دون الآخر[١٤٤].

[١٤٢] إرشاد الفحول؛ للشوكاني ص (١٤٠)، وأصول الفقه؛ لخلاف ص (٢٢٠).
[١٤٣] الإحكام؛ لابن حزم ٣، ص (٣٦٣)، وتسهيل الوصول ص (٣٧٨).

[١٤٤] تفسير النصوص في الفقه الإسلامي (٦٥٥/٢).

أهمية اللغة العربية في فهم الإسلام

كما ذكرنا سابقاً أن أهمية اللغة تتمثل في

- اللغة هي الوسيلة الأولى للتخاطب بين الناس.
- وهي أهمّ أداةٍ من أدوات التفكير.
- وهي وعاء العلم والمعرفة، تحفظُها الكتابةُ من الضياع.

هذه الأمور الثلاثة تكاد – لوضوحها – تكون من البدهيات، ولكن الناسَ – في حياتهم العملية – لم يعطوا هذه(البدهيات) ما تستحقُّه من الاهتمام! ومع أنها مشتركة بين اللغة العربية وسواها، إلا أن العربية تتميز عن غيرها بأنها لغة الدين الإسلامي، فالقرآن الكريم نزل باللغة العربية؛ قال تعالى :﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢].

وقال :﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [فصلت: ٣].

والرسول – صلى الله عليه وسلم – خاطب قومه العرب بلسانهم؛ قال تعالى :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ...﴾ [إبراهيم: ٤].

وهكذا فإن الأساسين الأَوَّلين لهذا الدين – القرآنَ والسنةَ – هما باللغة العربية، ولا يمكن فهمُهما، ومعرفةُ أسرارِهما، واستنباطُ الأحكام منهما لغير المتمكّن من هذه اللغة المباركة.

وقد أدرك الأئمةُ الأقدمون أهميةَ اللغة العربية في فهم كلام الله – سبحانه وتعالى – وكلامِ رسوله – صلى الله عليه وسلم – فهذا الإمام الشافعي – رحمه الله – يقول عنه زوجُ ابنته" :أقام الشافعي علمَ العربية وأيامَ

الناس عشرين سنة، فقلنا له في هذا، فقال: ما أردت بهذا إلا استعانةً للفقه[١٤٥]"؛ أي: ظلّ عشرين سنة يتبحّر في اللغة العربية وعلومها ليفقه ويفهمَ القرآن والسنة، ولا يستغرب منه هذا، فهو الذي يقول":أصحابُ العربية جِنُّ الإنس، يُبصرون ما لم يبصرْ غيرُهم[١٤٦]."

وكان علماء الدين يقولون" :من تكلّم في الفقه بغير لغةٍ تكلم بلسان قصير !"والمقام لا يتسع للتفصيل، وفيما ذُكر كفاية لإثبات المراد.

واللغة العربية بحر لا ساحل له، بعضُ علومها: النحو، والصرف، وعلم المعاني، وعلم البيان، وعلم البديع... إلخ، وكانت في الجيل الأول، جيل الصحابة – رضي الله عنهم – ملكةً وسليقة، ثم لما انتشر الإسلام في شتَّى البلاد، واختلط العرب بالمسلمين الجدد بالمصاهرة والمعاملة، والتجارة والتعليم، دخلت في لسانهم العجمةُ وبدأ الخطأ في الكلام، (فخفضوا المرفوعَ، ورفعوا المنصوب، وما إلى ذلك).

وقد بدأ هذا اللحن في وقتٍ مبكر جدًّا، إذ يُروى أن الخليفة الراشد عليًّا – رضي الله عنه – هو الذي وجَّه أبا الأسود الدؤلي إلى أن يضع أصولَ علم النحو حفظًا على اللغة العربية من الضياع[١٤٧]، فكيف الحال في زماننا، بعد مضي أكثر من أربعة عشر قرنًا؟!

ومن العلوم المهمة جدًّا في فَهم كلام الله – سبحانه – وكلام رسوله – عليه الصلاة والسلام – بعد علوم العربية: علم أصول الفقه الذي يُحدِّد قواعد استنباط الأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية في

[١٤٥] الفقيه والمتفقه؛ الخطيب البغدادي: ٢/٤١.
[١٤٦] آداب الشافعي ومناقبه؛ الرازي: ١٥٠.
[١٤٧] انظر: القواعد الأساسية للغة العربية؛ السيد أحمد الهاشمي: ١٣، ١٤.

القرآن والسنة[١٤٨]، وهو أيضًا بحر لا ساحل له، وقد كُتِبَ باللغة العربية ونَقْلُهُ إلى لغة أخرى يُخِلُّ بالكثير من مقاصده، وهو إحدى الأدوات المهمة لمن يريد الاجتهاد في الدين.

وغني عن البيان أننا عندما نتكلم عن اللغة العربية، فإننا نعني: اللغة الفصحى، لا اللهجاتِ المحلية العامية التي ابتعدتْ عن أصلها، وتباينت فيما بينها تباينًا كبيرًا، جعل العربي المشرقي لا يكاد يفهم شيئًا مِن عامية العربي المغربي، وبالعكس!!

نخلص مما تقدم إلى نتائجَ من أهمها:

أولًا: العربية الفصحى هي وعاء الإسلام، ومستودع ثقافته، ومادة أكثر ما كُتب عنه على مدى القرون.

ثانيًا: يجب على المسلم الذي لا يعرف العربية أن يقفَ عند حدود علمه، فلا يجاوز تلك الحدودَ عند الحديث عن الإسلام.

ثالثًا: وكذلك المسلم الذي يعرف العربية مؤهل – أيضًا – للفهم في حدود معرفته، أما الاجتهاد، والحكم على أقوال الأئمة بالصواب والخطأ، والقوة والضعف فله أهلُه، وهو مقصورٌ على من يملكُ أدواتِه.

رابعًا: الذي لا يعرف قواعدَ البيان العربي، ومقاصدَ خطاب العرب يقع في أخطاءٍ في الفهم، ويستنبط من القرآن والسنة معانيَ بعيدةً عن مقاصد الشرع.

خامسًا: لا بدّ كذلك من معرفة عادات العرب أيام نزول الوحي؛ لأن القرآن نزل مراعيًا عُرْفَهم في الخطاب[١٤٩].

[١٤٨] انظر: أصول الفقه؛ محمد زكريا البرديسي، ٢١ وما بعدها.

[١٤٩] انظر: ضوابط في فهم النص؛ د. عبدالكريم حامدي: ١١٨، وفيه نقل عن كتاب: الموافقات في أصول الشريعة؛ للإمام الشاطبي.

سادسًا: ينبغي بذل الجهد في نشر العربية بين المسلمين الذين لا يعرفونها، وتقويتُها بين الذين يعرفونها، فهذا مِنْ خير ما يُعينهم على فهمٍ أفضلَ للقرآن والسنة والعلوم الإسلامية.

من مزايا اللغة العربية

{١}

من مزايا هذه اللغةِ أنها تمتاز في مجموع أصواتِ حروفها بسَعَة مَدرَجها الصَّوتي سَعَةً تُقابل أصواتَ الطبيعة في تنوُّعها وسَعَتها.

وتمتاز من جهةٍ أخرى بتوزُّعها في هذا المَدرَج توزُّعاً عادلاً يؤدِّي إلى التوازن والانسجام. وقد أشار ابنُ جني في "الخصائص" إلى أن العربَ تجنَّبت بعضَ الكلمات لتقارُب مخارج حروفها، مثل اجتماع السين والصاد، أو الطاء والتاء.

{٢}

ومن مزايا هذه اللغةِ أن أصواتَ الحروف العربية يُنطَقُ بها الآنَ كما كان يَنطِقُ بها أهلُها قبل خمسةَ عشرَ قرناً، والفضل في ذلك يعود إلى القرآن الكريم.

{٣}

ومن مزايا هذه اللغةِ ثباتُها على مرِّ الزمان ومحافظتُها على خصائصها ومفرداتها، فما قاله زهير وعنترة والحطيئة قبل خمسةَ عشرَ قرنًا يقرؤه العربيُّ المعاصر اليومَ فيفهم مَعناه.

انظر قولَ زهير:

ومَنْ لا يَذُدْ عن حَوضِهِ بسِلاحِهِ يُهَدَّمْ ومَنْ لا يَظلمِ الناسَ يُظْلَمِ

ومَن يَغترِبْ يَحسِبْ عدوّاً صَديقَهُ ومَن لا يُكرِّمْ نفسَه لا يُكَرَّمِ

وقول عنترة:

أَثْني عليَّ بما عَلِمْتِ فإنني سَمحٌ مخالفَتي إذَا لم أُظلَمِ

فإذا ظُلِمْتُ فإنَّ ظُلمِيَ باسِلٌ مُرٌّ مذَاقَتهُ كَطَعمِ العَلْقَمِ

وقول الحطيئة:

أَقِلُّوا عَلَيْهِمْ لا أبَا لأبِيكُمُ منَ اللَّومِ أو سُدُّوا المكانَ الذي سَدُّوا

أُولئكَ قَومٌ إنْ بَنَوا أَحْسَنُوا البِنَى وإن عاهَدُوا أَوْفَوْا وإن عَقَدُوا شَدُّوا

إلى غير ذلك من الأمثلة..

إن هذه الأبياتِ كأنها نُظمت الآن، وهذا إنما كان بسبب ارتباط اللغة بالقرآن، وقد كان هذا سبباً في أن يجعلَ أجيالَ الأمة المتعاقبة يستفيدون من تُراث أمَّتهم الثقافي ومن أفكار عباقرتهم على مرِّ العصور، وكان سبباً في جعلِ أبناء أقطارٍ متباعدة يتكلَّمون لغةً واحدة من شواطئ الأطلسيِّ إلى حُدود فارس.. وجعلِ هذه اللغةِ إطاراً استوعَبَ ثمرات عقول ضَخمة وعبقريات فذَّة.. وذلك من فضل الله علينا وعلى الناس.

وبالموازنة مع الإنكليزية نجد أن ما كتبه شكسبير (١٥٦٤-١٦١٦م) يحتاج اليومَ الراغبون في فهمه من الإنكليز إلى مُترجم يُترجمه لهم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وآله

وعلي الله قصد السبيل.

العربية تصرخ {لم تلحنون}؟!!

فكما تسئل العربية لم نلحن؟ فلنا ايضا أن نتسائل:

♦أليست اللغة العربية هي لغة القرآن الكريم ولسان نبينا الأمين صلى الله عليه وسلم؟!

♦أليست لغتنا العربية هي التي نقلت الإسلام إلى أمم العالم؛ لينقذهم بإذن الله تعالى من عذاب الدنيا والآخرة؟!

♦أليست لغتنا العربية هي لغة الحضارة وهي سفينة نوح التي نقلت لأمم كثيرة المعاني الحقيقية للتقدم والتمدن؟!

♦ألم تكن العلوم التي خُطَّت باللغة العربية هي السبيل والمرجع لعلوم أوربا ونهضتها بعدما كادت تغرق في ظلام جهلها وتخلفها؟

♦ألا تمثِّل لغتنا جزءًا لا يتجزَّأُ من هويتنا الثقافية؟!

فكان لزامًا علينا –ولا بد– أن نعالج الداء قبل أن يستفحل، فكيف إذا صار طاعونًا عامًّا، واتسع الخرق على الراقع؛ وهذا يقينًا من مخططات الأعداء الذين عملوا على تبغيض لغة القرآن إلى أهلها، وإشاعة القول بصعوبتها وثقلها على الألسنة، والسخرية ممن يتعاطاها أو يتعامل بها، وإطلاق الضحكات على مُدرِّسيها، ووصفهم بأشنع الأوصاف في الإعلام وجعله ضُحْكة في مسلسل أو فلم أو مسرحية، وإثارة الدعوات من المثقفين المستنيرين –زعموا– للتحرر من قيود اللغة وآدابها، وإطلاق العنان للسان يقول كيفما شاء بلا ضابط ولا رابط، والحَكَم هو الذوق والمعنى، والتركيب المتناسق. فهذا هو الإبداع عندهم،

أما علم البيان والمعاني والبديع (علوم البلاغة) فعلوم عفا عليها الزمن، والدعوة إلى الشعر الحر، وهو بمعناه الحقيقي، أي: الشعر المتحرر من قيدي الوزن والقافية الذي أدار ظهره للشكل المتوارث. يقول الأستاذ سالم مبارك الفلق» :تلك الدعاوى الرامية إلى تفجير العربية وتحويلها إلى ركام من التراكيب والدلالات التي يعجز اللبيب عن إدراك مراميها فضلًا عن المثقف العادي. وقد بلغ مداه وأقصاه عند من يسمون أنفسهم) أهل الحداثة(، والحداثة أمرها محدَث، وشر الأمور المحدثات، لم يفكروا في حداثة تحافظ على خصوصيتنا وهويتنا وشريعتنا، وتوقف نزيف الكلمة الطيبة التي نحروها على نصب الغموض والرمز وعبث القول، والحداثة العربية في جميع صورها إنما راجت لسببين أساسين هما:

1-جنوح الناس إلى الخروج عن المألوف، ولهاثهم خلف» العصرنة«!

2-الخلط بين الحَدَاثة -وإن شئت فقل: بين الهدم- والتجديد[١٥٠]

وبكل يقين أقول: إننا لن نستطيع أن نُقيم صحوة حقيقية إلا بالرجوع إلى مصدر عزِّنا وفهمه فهمًا سليمًا مستقيمًا، ولن يتم لنا هذا إلا بالرجوع إلى علوم الآلة وأهمها العربية التي بدونها لن نفهم ديننا القائم على كلام الله وكلام رسوله وكلام علمائنا الأفذاذ عليهم الرحمة

.

الخلفاء والأمراء يحذرون اللحن ويخافون أن يتهموا به لشناعته:

[١٥٠] اللغة العربية، التحديات والمواجهة (ص ١٧).

دخل النضر بن شميل على المأمون ليلة فتفاوضا الحديث، فروى المأمون عن هشيم بسنده إلى ابن عباس قوله صلى الله عليه وسلم: «إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سَداد من عوز» بفتح السين. فقال النضر: يا أميرَ المؤمنين صدق هشيم، حدثنا فلان ابن فلان... إلى علي بن أبي طالب، فذكر الحديث، فقال فيه: «سِداد من عوز» وكسر السين، وكان المأمون متكئًا فاستوى جالسًا وقال :كيف قلت،»سِداد «بكسر السين؟ قلت: لأن السَّداد بالفتح هاهنا لحن، فقال :أتلحنني؟ قلت: إنما لحن هشيم فتبعه أمير المؤمنين، فقال: ما الفرق بينهما. قلت: السداد، بالفتح: القصد في الدين والسبيل، وبالكسر: البلغة، وكل ما سددت به شيئًا فهو سداد. فقال المأمون :أَوَتعرفُ العرب ذلك؟ قلت: نعم، هذا العرجي يقول:

أَضَاعُونِي وَأي فَتًى أَضَاعُوا

لِيَومِ كَرِيهَةٍ وَسِدَادِ ثَغْرِ

فاستوى جالسًا وقال: قبَّح اللهُ مَن لا أدبَ له. ثم أخذ يسأله عن أخلب بيت قالته العرب، ثم عن أنصف بيت قالته العرب، ثم عن فعل الأمر من الإتراب، ثم عن فعل الأمر من الطين، ثم دعا بالدواة والنضر لا يدري ما يكتب، ثم دفَع ما كتب إلى خادم ووجَّهه معه إلى الحسن بن سهل. فلما قرأ الرقعة قال: يا نضرُ، قد أمر لك بخمسين ألف درهم، فما كان السبب؟ فأخبره، فأمر له بثلاثين ألف درهم أخرى، فأخذ ثمانين ألف درهم بحرف واحدٍ استفيد منه[١٥١].

وحكى المبرد أن يهوديًّا بذل للمازني مائة دينار ليقرئه كتاب سيبويه، فامتنع من ذلك؛ فقيل له :لم امتنعت

[١٥١] راجع «معجم الأدباء» (٢/ ٤٨٣).

مع حاجتك وعائلتك؟ فقال: إن في كتاب سيبويه كذا وكذا آية من القرآن، فكرهت أن أقرأ القرآن لأهل الذمة، فلم يمض من ذلك إلا مُدَيدة، حتى طلبه الواثق ، وأخلف الله عليه أضعاف ما تركه لله، وذلك أن جارية غنت بحضرته:

أظلومُ إن مُصابَكم رجلًا

أهدى السلام تحية ظلمُ

فرد التوّزي عليها نصبَ» رجل «ظانًّا أنه خبر» إن «فقالت: لا أقبل هذا ولا غيره، وقد قرأته كذا على أعلم الناس بالبصرة أبي عثمان المازني؛ فأُحضر من سُرَّ مَن رأى، وسأله الخليفة عن البيت، فقال: صوابه : »رجلًا«، فقال له الخليفة :ولم؟ فقال: إنَّ» مصابكم «مصدر بمعنى» :إصابتكم .«فأخذ التوزي في معارضته، فقال: هو بمنزلة قولك: إن ضربَك زيدًا ظلمٌ، فالرجل مفعول» مصابكم «و»ظلم «الخبر، والدليل عليه أن الكلام معلَّق إلى أن تقول» ظلم «فيتم، فقال التوزي: حسبي، وفهم. واستحسنه الواثق. وأمر له بثلاثين ألف درهم[١٥٢]

فمن ترك شيئًا لله عوّضه، ورحمةُ الله على علمائنا الذين صانوا العلم فصانهم، وأعزوا العلم فأعزهم الله! فاللحنُ كان عندهم معيبًا جدًّا؛ لذلك قال أبو الأسود الدؤلي، وهو واضع علم النحو على المشهور بأمر علي رضي الله عنه» :إني لأجد لِلَّحن غَمرًا كغمر اللحم«.

ويقال: إن ابنته قالت له يومًا: يا أبتِ، ما أحسنُ السماء؟ قال: أي بنية نجومها، قالت: إني لم أُرِد أي

[١٥٢] راجع «بغية الوعاة» (١/ ٤٦٤، ٤٦٥).

شيء منها أحسن، إنما تعجبت من حسنها، قال: إذًا فقولي: ما أحسنَ السماءَ، فحينئذ وضع النحو[١٥٣]

وقد كانوا يتحاشون أن يُنسبوا إلى اللحن؛ فهذا الحجاج بن يوسف –وهو مَن هو شدةً وبطشًا– قال ليحيى بن يعمر :أتجدني ألحنُ؟ قال: الأمير أفصحُ من ذاك. قال: عزمتُ عليك لتخبرني، وكانوا يعظِّمون عزائم الأمر، فقال يحيى بن يعمر: نعم، في كتاب الله، قال: ذاك أشنع له !ففي أي شيء من كتاب الله؟ قال: قرأت: «قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبُّ إليكم من الله ورسوله» فترفع أحب وهو منصوب. قال: إذًا لا تسمعني ألحن بعدها. فنفاه إلى خراسان[١٥٤]

وقد كان الصحابةُ –لفهمهم لمراد الله ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم ولعلمهم أنه لن يتوصل إلى هذا إلا بالفقه في العربية– يؤمرون بتعلُّمها:

فقد كتب عمر إلى أبي موسى» :أما بعد، فتفقهوا في السنة، وتفقهوا في العربية، وأعربوا القرآن؛ فإنه عربيٌّ«[١٥٥].

وعن عمر رضي الله عنه أيضًا أنه قال» :تعلموا العربية؛ فإنها تزيد في المروءة«[١٥٦].

وقال أبيُّ بن كعب رضي الله عنه» :تعلَّموا العربية كما تتعلمون حفظ القرآن«[١٥٧].

وقد ورد عن جماعة من السلف أنهم كانوا يضربون أولادهم على اللحن[١٥٨]

العربية وطرائق اكتسابها

---

[١٥٣] انظر «تاريخ دمشق» (٢٥/ ١٩٠).
[١٥٤] انظر «أخبار النحويين» (١/ ٢).
[١٥٥] أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٠/ ٤٥٦) برقم (٣٠٥٣٤).
[١٥٦] الجامع» (٢/ ٢٥) للخطيب.
[١٥٧] أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٠/ ٤٥٧) برقم (٣٠٥٣٥).
[١٥٨] الجامع» (٢/ ٢٨، ٢٩)

بناءً على هذا كله يمكن أن نقترح الخطة التالية لاكتساب ملكة اللغة:

١– تنشئة الطفل على سماع الكلام الفصيح:

ذلك بأن يخضع الطفل لدورات منظمة من خلال رياض الأطفال لا يسمع فيها إلاّ الفصيح من الكلام، وقد أثبتت هذه الطريقة فعاليتها وآتت أكلها على خير وجه من خلال التجارب.

٢– قراءة النصوص الفصيحة وحفظها:

ويكون ذلك بعد أن يشبَّ الطفل عن الطوق ويغدو قادرًا على القراءة، وعلى أن يباشر ذلك بنفسه، عند ذلك لا بدَّ من وضع قائمة من الكتب المشتملة على أفصح النصوص يقرؤها الطالب، ويتذوق ما فيها، ويصطفي ما يحسن حفظه، ويحلو ترداده، ليكون له زادًا يقيم به لسانه، ويُعلي بيانه، ولا بدَّ له في سبيل ذلك أن يتخذ كنَّاشًا أو كراسًا يكتب فيه اختياراته تمهيدًا لحفظها، وما أحسن ما قال في ذلك يحيى بن خالد لولده: ((اكتبوا أحسن ما تسمعون، واحفظوا أحسن ما تكتبون، وحدثوا بأحسن ما تحفظون، وخذوا من كلِّ شيءٍ طرفًا، فإنه من جهل شيئًا عاداه))[١٥٩].

ولا ريب أن أول كتاب يتصدَّر هذه القائمة هو القرآن الكريم، فهو مفتاح العربية وبوَّابتها، والأساس المتين لكل راغب في إتقانها، وما أفلح من أفلح من أدباء العربية إلاّ بحفظهم للقرآن الكريم وتلاوتهم لآياته، وتذوقهم لبلاغته، ووقوفهم على روائعه وبدائعه، ورحم الله أستاذنا الأفغاني، إذ يقول: ((بين علوم القرآن الكريم وعلوم اللغة العربية ترابط محكم، فمهما تتقن من علوم العربية وأنت خاوي الوفاض من علوم القرآن فعلمك بها ناقص واهي الأساس، وقدمك فيها غير ثابتة، وتصورك للغة غامض يعرضك لمزالق تشرف منها

[١٥٩] عن كتاب آل القاسمي ونبوغهم في العلم والتحصيل، للشيخ محمد بن ناصر العجمي – دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، ص٢٢٤.

على السقوط كل لحظة، وسبب ذلك واضح لكل من ألَمَّ بتاريخ العربية، فهو يعلم حق العلم أنها جميعًا نشأت حول القرآن وخدمة له[١٦٠] .ومن هنا قيل: لولا القرآن ما كانت عربية. يلي ذلك الحديث النبوي الشريف، وفيه من عيون البلاغة والفصاحة ما لا يوجد في كتاب قط، ولا غرو فصاحبه رسول الله صلى الله عليه وسلم أفصح من نطق بالضاد، وجوامع الكلم التي أثرت عنه منهل ثرٌّ من مناهل الفصاحة والبيان، وفي ذلك يقول يونس بن حبيب: ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[١٦١].

ثم نهج البلاغة لأمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرَّم وجهه فهو مجمع من مجامع الفصاحة، لا تكاد تقرأ كلمة فيه إلاّ وتجد حلاوة فصاحتها وعذوبة بيانها في فمك وسمعك وقلبك.

ثم مجمع الأمثال للميداني، والأمثال اختصار للفصاحة، وتمثيل للبلاغة في أجمل صورها، وقديمًا عُرِّفت البلاغة بأنها الإيجاز، وما ثَمَّةَ أوجزُ من مثل.

ثم أساس البلاغة للزمخشري، وهو خير معجم لتعليم الفصاحة، لأنه اشتمل على نماذج من فصيح القول وبليغ العبارات لا يَشْرَكُهُ فيها معجم آخر. وفي ذلك يقول صاحبه: ((ومن خصائص هذا الكتاب تخيّر ما وقع في عبارات المبدعين وانطوى تحت استعمالات المُفلقين، أو ما جاز وقوعه فيها، وانطواؤه تحتها، من التراكيب التي تملُح وتحسُن، ولا تنقبض عنها الألسُن، لجريها رَسْلاتٍ على الأسَلات، ومرورها عَذْباتٍ

[١٦٠] من مقدمة الأستاذ سعيد الأفغاني لحجة القراءات، طبعة دار الرسالة، بيروت، ص١٩.

[١٦١] البيان النبوي مدخل ونصوص للدكتور عدنان زرزور، ص١.

على العَذَبات))[١٦٢]

ومما يمكن أن أن يستعان به لتنمية هذه الملكة والتمكن من ناصية اللغة كتب المختارات الأدبية والشعرية وهي كثيرة متنوعة، منها القديم ومنها الحديث، أشير فيما يأتي إلى بعض أسمائها عسى أن ينتفع الطالب بما يصل إليه منها:

- الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني.
- العقد الفريد لابن عبد ربه.
- زهر الآداب للحصري القيرواني.
- ربيع الأبرار للزمخشري.
- المستطرف من كل فن مستظرف للأبشيهي.
- مقالات الأدباء ومناظرات النجباء لعلي بن عبد الرحمن الغرناطي.
- من روائع الأدب للشيخ أحمد نصيب المحاميد.
- عيون الأشعار وروائع الأفكار للأستاذ هشام عبد الرزاق الحمصي.
- خير الأدب عند العرب للأستاذ هشام عبد الرزاق الحمصي.
- كيف تغدو فصيحًا عفّ اللسان د.محمد حسان الطيان.

[١٦٢] عَذْبات: جمع عذبة: سانغة حلوة. والعَذَبات: أطراف الألسنة، أساس البلاغة للزمخشري، مقدمة المؤلف رحمه الله، ص (ك).

إن كثرة المطالعة في هذه الكتب تعين الطالب بلا ريب على اكتساب ملكة اللغة، أما من أراد التخصص في هذا المجال فلا بد له من الرجوع إلى أركان هذا الفن – فن الأدب – التي ذكرها ابن خلدون في كلمته المشهورة: ((وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول هذا الفن وأركانه أربعة دواوين، وهي أدب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الكامل للمبرد، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ، وكتاب النوادر لأبي علي القالي البغدادي، وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها))[١٦٣]

٣– تعلم النحو الوظيفي والبلاغة:

النحو الوظيفي: مجموعة القواعد التي تؤدي الوظيفة الأساسية للنحو، وهي ضبط الكلمات، ونظام تأليف الجمل ليسلم اللسان من الخطأ في النطق والقراءة، ويسلم القلم من الخطأ في التأليف والكتابة.

أما النحو التخصصي فهو ما يتجاوز ذلك من المسائل المتشعِّبة، والبحوث الدقيقة التي حفلت بها الكتب الواسعة.

النحوُ يُصلِحُ من لسانِ الألكنِ والمرءُ تُكرمه إذا لم يلحنِ

والنحوُ مثلُ الملح إن ألقيته في كلِّ ضدٍّ من طعامك يحسنِ

وإذا طلبتَ من العلوم أجلَّها فأجلُّها عندي مقيمُ الألسنِ[١٦٤]

إن تعلم النحو يكسب الطالب مناعة ضد ما يعترضه من لحن أو خطأ في لسانه أو في قلمه، إنه سورٌ يحمي صاحبه من شر الانزلاق في هاوية الخروج عن الفصاحة، لأنه لا فصاحة للاحنٍ، ولا نجاة للمرء من اللحن إلاّ بتعلم النحو بعد اكتساب اللغة الصحيحة والاطلاع على أدبها وحفظ نصوصها كما أسلفنا،

[١٦٣] مقدمة ابن خلدون ١٢٧٧/٣ – ١٢٧٨.
[١٦٤] بهجة المجالس وأنس المجالس، للقرطبي ٦٦/١.

ومهما حفظ الطالب من نصوص وتعلم من أدب فلن يكون بمأمن من الخطأ إن هو لم يتعلم النحو، لأن تسرُّب الفساد اللغوي إلى كل شيء من حوله سيحول بينه وبين استقامة اللسان على سَنن واحد، مما قد يوقعه في اللحن، وهنا يبرز أثر النحو وتتضح أهميَّته إذ به يتبين الخطأ من الصواب، وبالاحتكام إليه يتَّضح نظام اللغة ووظيفة كل كلمة فيها[١٦٥]

وقال شعبة: ((مثل الذي يتعلم الحديث ولا يتعلم النحو، مثل البُرنس لا رأس له [١٦٦]((وكان أيوب السَّختياني يقول: ((تعلموا النحو، فإنه جمالٌ للوضيع، وتركُه هُجنة للشريف[١٦٧]))

٤- تعلم مبادئ التجويد والتمرس به:

التجويد إعطاء كل حرف حقّه ومستحقّه مخرجًا وصفة[١٦٨]، وهو أمر يعدُّ من لوازم الفصاحة، إذ لا فصاحة لمن تتداخل الحروف في نطقه، أو يعتورها نقص في النطق، أو حَيْفٌ في الصفة، أو آفَةٌ من آفات الكلام كاللثغة والتأتأة والفأفأة وما أشبه ذلك مما فصَّل الحديث عنه أرباب الفصاحة والبيان.

إن تلقين الترتيل للناشئ في رحاب العربية أمر مهم للغاية، وهو يبدأ من كتاب الله عز وجل لينتهي بإتقان اللفظ العربي أيًا كان موضعه، إذ يضمن للناطق التلفظ بكلمات اللغة على النحو الأمثل الذي تتلقفه الآذان بشغف وتسمعه بعذوبة ويكون له أكبر الأثر في النفوس، خلافًا لمن يخرج الحروف من غير مخارجها، ويعطيها غير صفاتها مما يجعل نطقه ممجوجًا، يضيق به سامعه، وينتظر لحظة سكوته وفراغه، وما أكثر ما

---

[١٦٥] بهجة المجالس، للقرطبي ٦٤/١.
[١٦٦] بهجة المجالس، للقرطبي ٦٤/١.
[١٦٧] البيان والتبيين ٢١٩/٢.

[١٦٨] بهجة النفوس في تجويد كلام القدوس، محمد مأمون كاتبِي، وزارة الأوقاف، الكويت، جزءان ٧٥/١.

ابتلي الناس اليوم بمثل هؤلاء الناطقين الذي ذهبوا برُواء اللغة، ففقدت على ألسنتهم أجمل خصائصها وأروع صفاتها، واختلط حابل الحروف بنابلها، فرقَّقوا ما حقُّه التفخيم، وقلقلوا ما حقّه الاستطالة، وهمسوا ما حقّه الجهر، وضاعت على ألسنتهم مخارج الحروف وصفاتها، وصرنا إلى ما قاله العباس بن الأحنف:

مَن ذا يُعيرُكَ عينَه تَبكي بِها أرأيتَ عَينًا للبُكاءِ تُعارُ[١٦٩]

وإذا كان ابن الجزري يقول في منظومته المشهورة :

والأَخذُ بالتَّجويدِ حَتمٌ لازمُ مَن لم يُجَوِّدِ القُرانَ آثِمُ[١٧٠]

إن فن التجويد واحد من الفنون التي لا يمكن أن تُتقن بالاعتماد على الكتب فحسب، إذ لا بدَّ فيه من التلقي والتلقين المباشر من أفواه الأشياخ المقرئين المتقنين ليتمرَّس الطالب بطريقة الأداء الصحيحة ويجتنب كل ما ينبغي اجتنابه، ومن فضل الله على هذه الأمة أن أرباب التجويد منتشرون في كل صقع من أصقاع الأرض، يعلِّمون هذا الفن حِسبةً لوجه الله سبحانه، إيمانًا بما ادَّخره الله سبحانه لهم من جزيل الثواب وواسع المغفرة وحسن المآب لقوله صلى الله عليه وسلم: ((خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه))[١٧١] وكتب التجويد ورسائله كثيرة منتشرة، من أجلِّها وأقدمها كتاب الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق التلاوة للإمام المقرئ مكي ابن أبي طالب القيسي (٤٣٧هـ).

٥- مزاولة الفصاحة قراءةً وكتابةً وكلامًا:

---

[١٦٩] ديوان العباس بن الأحنف، ص٧

[١٧٠] المنظومة الجزرية، نشرت في رسالة بعنوان: "ملحق المفيد في علم التجويد"، تأليف الحاجَّة حياة علي الحسيني، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، ص٥ .

[١٧١] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه. فتح الباري ٧٤/٩

لا يَعرفُ الشَّوقَ إلاَّ مَن يُكابِدُهُ ولا الصَّبابةَ إلاَّ مَن يُعانِيها

الفصاحة معاناة ومزاولة، تشترك فيها جميع الحواسِّ والمدارك، تبدأ بالسماع وتمرُّ بالقراءة لتنتهي بالكتابة والكلام الفصيح، فهي عمل متواصل للأذن والعين واليد واللسان، إذ هي تمرّس وتدريب يتبع الاكتساب والتحصيل، ولا يغني فيها اكتساب عن تمرُّس، ولا تحصيل عن تدريب، إنما تحصل بمجموع ذلك كله، ولعل أثر التمرّس والتدريب أكبر من أثر التحصيل والاكتساب لما لهما من أهمية في نمو ملكة اللغة وتثبيت أركانها وتوطيد دعائمها، وكلما أكثر المرء من استعمال لسانه في ضروب من الفصاحة كان ذلك أطلق للسانه وأبلغ لبيانه وأعودَ عليه بزيادتها وبلوغ الغاية فيها.

روى المبرد في الكامل أن رجلاً قال لخالد بن صفوان: إنك لتُكثر! فقال: أُكثر لضربين: أحدهما فيما لا تغني فيه القلة، والآخر لتمرين اللسان، فإن حبسه يورث العُقلة. وكان خالد يقول: لا تكون بليغًا حتى تكلم أمتك السوداء في الليلة الظلماء في الحاجة المهمة بما تتكلم به في نادي قومك، فإنما اللسان عضو إذا مرَّنته مَرَن، وإذا أهملته خار، كاليد التي تخشنها بالممارسة، والبدن الذي تقويه برفع الحجر وما أشبهه، والرِّجل إذا عُوِّدت المشيَ مشت[١٧٢].

ومما لا شكَّ فيه أن الخطابة ضرب من ضروب الفصاحة، بل هي مرتع خصب لها، وميدان واسع تتبدى مهارة الفصاحة من خلاله، والخطيب لا يغدو خطيبًا مصقعًا إلاَّ بمواصلة الدربة والتمرين، ومزاولة الخطابة والتمرس بأصولها والتدرب على فنونها، وما عرف عن خطيب أنه بلغ شأوًا في الخطابة متميزًا إلاَّ بعد طول دربة وتمرين وصقل، بالإضافة إلى ما حصَّله من علم ومعرفة، وما اكتسبه من ملكة وطبع.

[١٧٢] الكامل، للمبرد، ٥٣٢.

جاء في زهر الآداب أن أبا داود كان يقول: ((رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحاها رواية الكلام، وحَلْيُها الإعراب، وبهاؤها تخيّر اللفظ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه))[١٧٣]

6-أثر وسائل الإعلام في اكتساب هذه الملكة:

غزو وسائل الإعلام مرئيةً ومسموعة ومقروءة كل بيت، فتصل إلى الصغير والكبير، ويتأثر بها كل إنسان شاء أو أبى، طوعًا وكرهًا، وهي بلا شك تشتمل على الصالح والطالح، والنافع والضار، والمصلح والمفسد، فإن نحن أحسنَّا توجيهها في خدمة موضوع الفصاحة واكتسابها، كان لها الأثر الكبير في ذلك.

ولقد أثبت البرنامج التلفازي المشهور (افتح يا سمسم) صدق هذه المقولة، إذ كان له الأثر الناجع في لسان الأطفال، فالتفوا حوله على اختلاف لهجاتهم وأقطارهم ومنازعهم ومشاربهم ليفهموا أوَّلاً كل كلمة فيه لأنه استعمل العربية الفصيحة المألوفة المأنوسة، وليحاكوا ثانيًا أسلوبه في استعمال هذه اللغة، مما مهد لظهور الكثير من أفلام الأطفال المتحدثة بالعربية، وهو أمر دفع إليه رغبةُ المنتج في بيع هذه الأفلام وتسويقها في كل أرجاء الوطن العربي الكبير، فكانت العربية خير ملاذٍ يلجأ إليه، إذ بها يستطيع أن يدخل كل بيت عربي على امتداد الوطن العربية الكبير، فإذا كان الدافع الرغبة في الربح والتجارة فلِمَ لا يكون أيضًا الرغبة في نشر العربية السليمة في كل صقع عربي؟ بل لم لا يجتمع الأمران فنخضع هذه البرامج لرقابة لغوية تنفي عنها آثار الركاكة والخطأ الشائع واللحن وما إلى ذلك مما يضير بالفصاحة، وتكسوها ثوبًا قشيبًا من الفصاحة والبلاغة والبيان.

---

[١٧٣] زهر الآداب ١٤٨/١.

تأثير اللغة العربية على الثقافة الإسلامية

شعبٍ ثقافتُه التي يتميَّز بها عن غيره، وتنعكس هذه الثَّقافة على لغة هذا الشَّعب، فاللُّغة في أي مجتمع هي مرآة ثقافته، وهي الوسيلة التي تستخدمُها الشعوب للتَّعبير عن العناصر المختلفة للثَّقافة: عاداتها وقوانينها وتقاليدها ومفاهيمها، ويوجد تكامُل بين اللُّغة والثَّقافة، وكلاهما يكتسب بصورة اجتِماعيَّة، فالتَّكامُل بين اللُّغة والثَّقافة على درجة كبيرة من الأهمّيَّة، وتبرز تلك الأهمّيَّة بوضوح في مَجال تعليم اللغات عامَّة، وتَعليم اللغة العربيَّة علي الخصوص.

اللغة والفكر والثقافة:

نَّ اللغة خزَّان ثقافي فكري وديوان للحضارة، فالطّفل الَّذي نعلّمه اللغة العربيَّة، فنحن على الأصحّ نعلّمه الثَّقافة العربيَّة بكل تفصيلاتها، يلتزم بقيم متكلِّميها ويتشرَّب أنماطَهم في التَّفكير والرّؤية إلى العالم والأشْياء، وهذا ما تعجِز عنه الوسائط الأخرى، ومنْه؛ فإنَّ أيَّ تخلّف في اللغة يلزمه تخلُّف في الثقافة والوجدان الجمعي والانتماء إلى الوطن (المواطنة)؛ لأنَّ اللغة ليست وسيلة بريئة في التعلّم، بل شحنة يمكن أن تستثْمر إيجابًا أو سلبًا.

إنَّ قيمة اللغة العربيَّة إذًا لا تكمن في قدسيَّتها أو ما يلفّ لفَّ ذلك، بل فيما تقوم به من تقطيع مفهومي ودفْع للمتكلّم والمتعلّم إلى الانتماء إليها.

تأثير العربية على اللغات الأخرى:

امتدَّ تأثير العربية كمفردات وبنى لغويَّة في الكثير من اللغات الأخرى؛ بسبب الإسلام والجوار الجغرافي والتِّجارة فيما مضى، (هذا التَّأثير مشابه لتأْثير اللاتينيَّة في بقيَّة اللغات الأوربيَّة، وهو ملاحظ بشكْلٍ واضح في اللغة الفارسيَّة حيث المفردات العلميَّة معظمها عربيَّة، بالإضافة للعديد من المفردات المحكيَّة يوميّا) مثل: ليكن = لكن، و، تقريبي، عشق، فقط، باستثناي = باستثناء.

أهمّيَّة اللّغة:

اجتِماعيَّة: يتمّ من خلالها التَّواصُل مع الآخَرين في المجتمع.

أهمّيَّة عقليَّة: اللغة هي أداة التَّفكير والثقافة للفرد.

أهمية نفسيَّة: يعبر بها الإنسان عن رغباته وانفِعالاته، مثال ذلك الشعراء والأُدَباء الَّذين يتغنَّون باللّغة.

أهمّيَّة جماليَّة: تفيد الإنسان في تذوق الأعمال الأدبيَّة المختلفة من شعر ونثر.

يقول الفيلسوف الألماني فيخته :اللغة تجعل الأمَّة الناطقة بها كلاً متراصًّا حاضعًا لقوانين محدَّدة، وهي الرابطة بين عالم الأجسام وعالم الأذهان.

ويقول" فوسلر" :"إنَّ اللّغة القوميَّة وطن روحي يأوي من حُرِم وطنه علي الأرض.

ويقول مصطفى صادق الرافعي" :إنَّ اللغة مظهر من مظاهر التَّاريخ، والتَّاريخ صفة الأمة، فاللّغة هي الصفة الثَّابتة التي لا تزول إلاَّ بزوال الجنسيَّة وانسلاخ الأمَّة من تاريخها."

آثار العربيَّة في الثَّقافة الإسلاميَّة عامَّة:

إنَّ المسلمين قد اهتمُّوا بضبط اللّغة وجمعها، وتحْديد ألفاظها، وقد أدَّى هذا الاهتِمام إلى ظهور المعاجم اللّغويَّة والنَّحويَّة والصَّرف والعروض، وهي من العلوم الدينيَّة بمنزلة الآلة.

وتأثيرها على ثقافة المسلمين يكون من أوجه متعدّدة، منها:

1-أسلوب التحيَّة بالتَّسليم وردّه.

2-استخدام بعض مصطلحات عربيَّة متعلقة بالدّين الإسلامي، كالصَّلاة والحجّ والزَّكاة، والمسجد والجنازة والدّعاء والنكاح والطلاق.

كاد أن لا يوجد مسلم لا يفهم أو لا ينطق بتِلك المصطلحات اللغويَّة العربيَّة، مهما كان ضعْفه في العربيَّة وإن لم يكن عربيًّا.

3-وأسلوب الكتابة بالأحرُف العربيَّة عند بعض اللّغات المنتمية إلى الإسلام، كالفارسيَّة والتّركيَّة والمالايوية والهاوسا والأورديَّة، وغيرها من اللغات التي تعتبر لغات المسلمين.

4-ومنها: قرض مفردات اللغة العربيَّة إلى بعض تلك اللّغات المذْكورة.

5-العربيَّة كوسيلة مهمَّة في أداء العبادات المحتاجة إلى التلفُّظ، كالقراءة في الصلاة، والتّلاوة والتَّلبية في الحجّ، والتلفظ بالأدعية والأذكار المأثورة وغيرها.

6-وقد أثَّرت العربية في القراءاتِ القرآنيَّة، من حيثُ إنَّ لكلّ قراءة دليلها المقنع في اللغة، لاسيَّما إذا كانت مثل هذه القراءة من القراءات الصَّحيحة. .ومن بين أوجُه تأثير العربيَّة في ثقافتنا: نزول القرآن دستور المسلمين نفسه باللّغة العربيَّة، وقد تكرَّر الإقرار بنزول القُرآن بهذه اللغة العربيَّة لحكمة التبيّن والتعقّل والتدبّر المحكم والتفصيل، فيما بلغ إحدى عشرة مرَّة (فصلت: ٤٤، الرعد: ٣٧، الرمز: ٢٨ .)

الحرب ضد الإسلام واللغة

بدأت الحملات الغربيَّة توجّه إلى الثقافة العربية من خلال أرسخ الحصون وأقواها، وهو الإسلام نفسه، وقد حاولوا عدَّة مرَّات وما زالوا في الدَّعوة إلى التَّفرقة بين الدّين والقوميَّة العربية، بل بين الإسلام واللّغة التي أنزل بها دستور الأمَّة الإسلاميَّة نفسها؛ أي: العربيَّة.

ولقد واجهت اللّغة العربيَّة أقسى ألْوان التحدّي في سبيل القضاء على وحدتها، وتغْليب العامّيَّات الإقليميَّة عليها، وقد بدأت الحملة من منطلق مقارنة اللّغة العربية باللغة اللاتينيَّة الَّتي دخلت المتاحف، مخلية الطَّريق للغات الإقليمية واللهجات المحلّية، وبالجملة فإنَّ التَّحدّيات الصَّادرة من قبل هؤلاء المغربين والمستشْرقين أختصرتها في عدة عناصر:

1- المحاولة في إيقاف اللغة العربيَّة عن النموِّ في الأوطان الإسلاميَّة، بما فيها الدول العربيَّة وغير العربيَّة، علمًا أنَّها هي لغة الفِكْر والثَّقافة والعبادة لدى هؤلاء المسلمين، الَّذين قد يبلغ (عددُهم حاضرًا ١,٤ مليار؛) مقالة: يحيي توين مرتضى، أثر العربية في ثقافة المسلمين.

2- المحاولة المتواصلة في استبدال العاميَّة بالفصحى في كثير من البلدان العربيَّة.

3- السَّعي في خلْق لغة وسطى بين العامّيَّة والفصحى؛ وذلك لإنزال مستوى الثَّقافة العامَّة إليها، وعزل اللّسان العربي والثَّقافة عن مستوى القرآن الكريم من الفصاحة.

4–المحاولة في هدْم دولة الإسلام والقضاء عليها، وقد سلكوا في تحقيق ذلك طريق تجْزِئة الأمَّة الإسلاميَّة وتفتيتها، فأثاروا النعرات الإقليميَّة والقوميَّات، وجنَّدوا لذلك أعوانًا لهم داخل ديار المسلمين.

5–محاولة الإغارة على حضارة الإسلام وثقافته؛ سعيًا وراء هدم عقائده وأفكاره، ونشْر الأفكار الغربيَّة بديلا عنها .

6–الغزْو الفكري عن طريق التَّبشير.

ولقد وجدت الدِّراسة أنَّ تأثير اللغة على المسلمين كبير، ولكن يبدو أنَّ الغربيين حاولوا كلَّ محاولتهم في سبيل التَّفريق بين اللّغة العربية والثَّقافة الإسلاميَّة، ولكن لم ينجحوا؛ لأنَّ المسلمين كان لهم دور مهمّ لا يُنسى في تاريخ تطوّر اللغة العربية، بإنشاء علوم لغويَّة متعدّدة تُعين على إحياء اللغة وإبقائها وانتشارها في أنحاء العالم، حتَّى اعتبارها لدى الأمم المتَّحدة .

ومن المستحْسَن أن يقوم المسلمون بدوْرِهم في الدّفاع عن اللغة وثقافتها تِجاه العداوة الفكرية التي تحاول التفريق بينهما وتغييرهما، بهدف القضاء عليهما.

اللغة العربية وأهميتها في رواية الحديث وفهمه

من المعلوم أن اللغة العربية تُعَدُّ ركيزةً أساسيةً بالنسبة إلى علوم الشريعة كلها؛ لأن فهم علوم الشريعة ومضامينها مرتبطٌ بصورة أساسية بفهم اللغة العربية ومعرفة علومها؛ فالقرآن الكريم مصدر الشريعة الأول كتابٌ عربيٌّ، وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم المبينة والشارحة للقرآن الكريم والمؤسسة لكثيرٍ من

الأحكام، لسانها عربيٌّ؛ فمَنْ لا يعرف العربية وعلومها، كيف سيفهم الوحي؟! لهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب؛ فإن فهم الكتاب والسنة فرضٌ، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتمُّ الواجبُ إلَّا به فهو واجب[١٧٤].

وقال: ولا بد في تفسير القرآن والحديث من أن يعرف ما يدل على مراد الله ورسوله من الألفاظ، وكيف يفهم كلامه؛ فمعرفة العربية التي خُوطبنا بها مما يُعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني، فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب، فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدَّعون أنه دالٌّ عليه، ولا يكون الأمر كذلك.

من هنا نفهم سرَّ اهتمام المحدِّثين باللغة العربية وعلومها، واعتبارهم معرفتها من مهمات المحدِّث وطالب الحديث، وسنُبيِّن صورًا من هذا الاهتمام في النقاط التالية:

أولًا: اهتمامهم باللغة في جانب الرواية، وتجلَّى ذلك فيما يأتي:

1-تأكيدهم على طالب الحديث أن يبدأ بتعلُّم اللغة قبل الحديث، وقد نُقِلَ عنهم عبارات شديدة في ذلك، منها: "قال حاجب بن سليمان: سمِعتُ وكيعًا يقول: أتيت الأعمش أسمع منه الحديث، وكنت ربما لحنت، فقال لي: يا أبا سفيان، تركت ما هو أولى بك من الحديث، فقلت: يا أبا محمد، وأي شيء أولى من الحديث؟! قال: النحو، فأملى عليَّ الأعمش النحو، ثم أملى عليَّ الحديث.

[١٧٤] اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، صـ ٢٠٧.

وروى الخطيب عن شعبة، قال: من طلب الحديث، ولم يتعلَّم العربية كمثل رجل عليه برنس وليس عليه رأس.١٧٥

فسبب السلامة من اللحن يكون بتعلُّم النحو؛ أي: تعلم ما يعرف بالإعراب١٧٦

2–عند كلامهم على رواية الحديث بالمعنى اشترطوا للجواز "أن يكون الراوي عالِمًا بالألفاظ ومدلولاتها ومقاصدها، خبيرًا بما يحيل المعاني، بصيرًا بمقدار التفاوت بينها، عارفًا بالشريعة ومقاصدها وقواعدها، وأما إذا لم يكن عارفًا بما ذكر، فلا تجوز قط بالإجماع"

٣ –من القواعد التي ذكروها عند كلامهم على الأمور التي يستدلُّ بها على كون الحديث موضوعًا مكذوبًا "ركاكة ألفاظ الحديث وسماجتها١٧٧"؛ وانما يُميِّز الركيك من غيره العارف بكلام العرب ومعانيه وأساليبه.

ثانيًا: أهمية العلم باللغة العربية في فهم الحديث وشرح نصوصه وبيان معانيه، وذلك أن النبي صلَّى الله عليه وسلم نشأ في بيئة عربية خالصة بلغت الدرجة العالية في الفصاحة والبيان فضلًا عمَّا حباه الله به من مزايا الوحي المنزل، فكلام رسول الله فيه ما في لغة العرب من الأساليب البديعة، واستعمال المجاز، وغير ذلك، فلا يمكن فهم الحديث النبوي، واستنباط الأحكام منه، إلا لمن كان على دراية تامَّة بالعربية وعلومها، كما أن النصَّ قد تتفاوت معانيه مع تغايُر وجوه إعرابه، ومن المعلوم أيضًا أن معرفة الإعراب فرع المعنى.

وقد اهتمَّ المحدِّثون بهذا الجانب، ولعل من أبرز صور هذا الاهتمام أنهم جعلوا من أنواع علوم الحديث ما

---

١٧٥ في القاموس: "البرنس بالضم: قلنسوة، أو كل ثوب رأسه منه، دراعة كان أو جبة أو قمطرًا."

١٧٦ توضيح الأفكار، ويُنظر: الجامع في آداب الشيخ والسامع؛ للخطيب.

١٧٧ المنار المنيف؛ لابن القيم (٩٩).

عرف باسم "معرفة غريب الحديث"، وهو يهتمُّ ببيان معاني الألفاظ الغريبة، وقد صنَّفُوا في ذلك مُصنفات، من أشهرها: النهاية في غريب الحديث؛ لابن الأثير، وغريب الحديث؛ لأبي عبيد، ومثله لابن قتيبة. وقد أدرك علماء الشريعة قديمًا وحديثًا أهمية اللغة بالنسبة إلى فهم القرآن والسنة، فهذا هو محمد بن عبدالله زوج ابنة الإمام الشافعي يقول: أقام الشافعي علمَ العربية، وأيامَ الناس عشرين سنة، فقلنا له في هذا، فقال: ما أردتُ بهذا إلا استعانةً للفقه[١٧٨].

وقد أدرك علماء الدين هذه القضية؛ فها هو إبراهيم الحربي يقول: مَنْ تكلَّم في الفقه بغير لغةٍ تكلَّم بلسان قصير[١٧٩].

وإذا كانوا قد ذكروا أن المفسِّر لكلام الله عز وجل يحتاج إلى أدوات حتى لا يتكلم في كتاب الله بغير علم، ومن هذه الأدوات:

1-علم اللغة.

2 -علم النحو.

3-علم الصرف.

4-علم الاشتقاق.

5-علوم البلاغة الثلاثة: المعاني، البيان، البديع.

[١٧٨] الفقيه والمتفقه؛ للخطيب البغدادي ٢/ ٤١ رقم: ٦٦٢.
[١٧٩] الفقيه والمتفقه؛ للخطيب البغدادي ٢/ ٤١ رقم: ٦٦٣.

قال ابن تيمية: من لم يعرفْ لغةَ الصحابةِ التي كانوا يتخاطبون بها، ويخاطبهم بها النبي صلى الله عليه وسلم وعادتهم في الكلام، حرَّفَ الكلم عن مواضِعه؛ فإن كثيرًا من الناس ينشأ على اصطلاحِ قومه وعادتهم في الألفاظ، ثم يجد تلك الألفاظَ في كلامِ اللهِ أو رسوله أو الصحابة، فيظن أنَّ مرادَ الله أو رسوله أو الصحابة بتلك الألفاظ ما يريدُه بذلك أهلُ عادته واصطلاحه، ويكون مرادُ الله ورسوله والصحابة خلاف ذلك[١٨٠].

أسباب ضعف اللغة العربية في العصر الحالي

- عدم الإحساس بأهمية اللغة العربية الفصحى، أو تقدير دورها في الحفاظ على شخصية الأمة وكرامتها وهُويَّتها ووحدتها.
- عدم ثقة قوم ممن اهتزَّ انتماؤهم الحضاري لأمَّتهم، بمقدرة لغتهم على أن تكون لغةَ علم وفنٍّ وثقافة.
- جهل كثير من الإعلاميين بها.
- الانبهار بالآخر الغربي لعوامل مختلفة، لا مجال لبسط القول فيها، ومن هذا الانبهارُ بلغته وإيثارها على العربية.
- ظنُّ فاقدي الثقة بأمَّتهم وحضارتهم أن استعمال اللغات الأجنبية، والرَّطَانة ببعض ألفاظها ومصطلحاتها – دليلُ الحضارة والرُّقيِّ.
- التكاسل في الترجمة والتعريب، وإيثار الجاهز من الألفاظ والمصطلحات والمسمَّيات الأجنبية.

[١٨٠] الاعتصام ٢/ ٢٦٥.

إذا ماهو العلاج

وسائل علاج ضعف اللغة العربية في وقت الناس هذا

فيما سبق عرضت لأبرز أسباب ضعف اللغة، وفيما يلي أحاول مستحثًّا قلمي، مستعينًا قبل ذلك بالله أن أقترح العلاج في سطور معدودات، راجيًا الله البصيرة والسداد.

أ –الاهتمام بالقرآن الكريم وسنة النبي (صلى الله عليه وسلم)، ودمجهما في مدارس التعليم العام بصورة أكثر وضوحًا وقوة، وجعلهما مادةً منفصلة، ولها من الأهمية ما لغيرها من المواد، وإن كان القرآن والسنة لا يقارنا بشيء ولا يعدلهما شيء، فضلًا عن إعادة النظر بعمق في مدارس التعليم الشرعي على اختلاف مسمياتها وتنظيماتها الإدارية.

ب –قال عمر بن عبدالعزيز(رضي الله عنه) يومًا لمعلم صبيانه يوصيه قائلًا: (لا تعدهم من علم إلى علم حتى يتقنوه)، ولا أرى أبلغ من هذا لعرض هذا الحل العظيم النفع، ألا وهو عدم تدريس لغة أجنبية ثانية إلا بعد التمكن من اللغة العربية الفصيحة[١٨١].

ج –إعادة النظر في مناهج اللغة العربية، وحسن اختيار النصوص الأصيلة المعنى والمبنى، والبعد عن الركيك منها، وعدم الإغراق في ذلك النوع من الأدب الذي يقتُل ملكة الإحساس والتذوق لدى الطلاب في المدارس.

د –القيام على إعداد معلمي اللغة العربية قيامًا حقًّا، تكون النية فيه أن إعداد معلم اللغة العربية كإعداد الجندي في الميدان الذي يزود عن هوية الأمة ويذب عنها، ويحمي حماها من لؤم المتربصين بها .

[١٨١] محمود أحمد شاكر، أباطيل وأسمار، مكتبة الخانجي بالقاهرة

هـ –توجيه الإعلام على كافة مستوياته باستخدام لغة فصيحة رصينة قوية، حتى تطرق مسامع الناس ما حُرموا منه من كل لون الربيع مما زين، ولون رياض العربية، ويدركوا جوهر لغتهم الغراء.

و –تشجع الطلاب والدارسين والمعلمين والأدباء والكتاب، والصحفيين والمذيعين المهتمين والمجيدين للعربية بكل السبل؛ كالتكريم والمكافآت المادية والمعنوية، وإقامة المسابقات المتخصصة ذات المعايير القوية؛ حتى تفرز لنا زبدة المواهب العربية.

اللغة العربية جمال ومقومات

إذا كانت أيُّ لغةٍ من اللغات هي أحدَ مقومات شخصية صاحبها، فكيف إذا كانت هذه اللغة هي اللغة العربية المجيدة، لغة كتابنا الكريم القرآن، ولسان نبيِّنا الهادي الأمين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام؟! فلا شكَّ أنها لغة الخلود، وتاج الزمان، ومَفْخَرة التاريخ للعرب والمسلمين، ولا مجد للغة العربية يكرمها، ولا ثناء لها يكفيها، إلا قولنا: "قد اختارها ربُّ العزة لكتابه العزيز، فأنزل بها أحسَنَ الحديث، وأرسل أعظم الذكر، فبها قرآن يُتلى ليوم الساعة، فهي محفوظةٌ بحفْظِه، مرفوعةُ القَدْر بعزِّه، وقد قال عز من قائل : ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾]الزمر: ٢٨]"، وقد كان حاملُ الرسالة الربانية نبيُّنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم – أفصحَ من نطَقَ الضاد.

فاللغة العربية هي الجِسْر الآمنُ للولوج إلى علوم الكتاب، وتحرِّي الصواب، لا يحول بيانُها، ولا يزول لسانها، فقد فاقَتْ باقيَ اللغات لفظًا وتبيانًا، سرًّا وسِحْرًا وجمالًا؛ بفضْل ما اتَّسمت به من قوةٍ في البناء،

وجزالةٍ في التعبير، ودقَّة في اللفظ والمعنى والمضمون، فقد استطاعت أن تستوعب جميع اللغات، وتحتوي كلَّ العلوم، وتتَّسع لكل الأزمنة والعصور، وزادها تميُّزًا خصائصُها النادرة، ومزاياها الفريدة؛ من كثرة مفرداتها وغناها، ووجود المترادفات فيها وتنوُّعها.

وكذلك هي معجزةٌ بأصواتها التي بلغت الكمال الجماليَّ من مخارجَ وصفات وغيرها من مقوماتها الصوتية الثابتة، وقد سلِمتْ من الركاكة والضعف وتنافُر الحروف، فقال فيها أحد فلاسفة الغرب: "معجزة اللغة العربية أنها ليست لها طفولةٌ، وليس لها شيخوخةٌ"، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه" :تعلَّمُوا العربية؛ فإنها تَزيد في المروءة."

وما زال ليومنا هذا غوَّاصوها يغُوصُون ويغوصون فيستخرجون دُرَّها المكنون، ويستكشفون سرَّها المكتوم، ولا أبلَغَ ولا أجمل من قول الشاعر فيها:

لُغتي وأفْخرُ إذْ بُليتُ بُحبِّها

فهْي الجمالُ وفصْلها التِّبيانُ

عربيَّةٌ لا شكَّ أنَّ بيانها

مُتبسِّمٌ في ثغْره القرآنُ

عَوْلَمة اللغة:

اللغة وِعاءُ الثقافة، والثقافةُ أساسُ الحضارة، والحضارةُ ترجمةٌ للهُوِيَّة، ومِن هنا كانتِ اللغةُ مِن أهم الأركان التي تعتمدُ عليها الحضارات، ومن أهم العوامل التي تُساهِم في تشكيل هُوِيَّة الأمة.

إن الاعتزازَ باللغة ليس وليدًا للاعتزاز بذات اللغة، بقدر ما هو اعتزازٌ بالثقافة التي تُمثِّلُها هذه اللغة، ونحن نقرَأُ في العصر الحديث أن مِن أكبر العوائق التي وقَفَتْ في وجهِ اتفاقيات السلام في مقدونيا الاعترافُ باللغة الألبانية لغةً ثانية في البلاد[١٨٢] وبقدر ما تكون اللغةُ متطورةً ومُوحَّدة بقدر ما تكون الأمةُ موحدةً ومُتَّحدة، وكلما غابتِ اللغةُ وتفكَّكت وتعدَّدت، فذاك مَدْعاةٌ إلى الضعفِ والاختلاف.

وقد أكَّدتِ الأحداثُ أن الدولَ التي يتحدَّثُ أهلُها لغةً واحدة تكون أكثرَ تماسكًا وانسجامًا من الدول التي تتحدَّثُ بعدَّة لغاتٍ، بل إن وحدةَ اللغة مِن أهم عوامل الاستقرار السياسي والاقتصادي، وهذا واضحٌ في الدول الإفريقية إذا ما قُورِنَت بالدولِ الأوروبية، ومِن أجل هذا فليس مِن المُستغرَب أن يُؤكِّد بعضُ الباحثين أن البلادَ المُجزَّأة لُغَويًّا بشكلٍ كبير بلادٌ فقيرةٌ دائمًا[١٨٣].

وتأسيسًا على ما سبق نُدرِك خطورةَ دخول لغةٍ أجنبية على شعب ما، خصوصًا إن كانت لغةَ الغالب أو اللغةَ التي تمنحُ مُتحدِّثيها مِيزاتٍ اجتماعيةً واقتصادية.

---

[١٨٢] مجلة العربي، العدد ٦٧٨، مايو ٢٠١٥، ص٤٣.
[١٨٣] الم المعرفة: اللغة والاقتصاد، ص ٤٨.

نصلُ بعد كلِّ هذا إلى الحديث عن المقصود بالعَوْلَمة اللُّغوية، إنه مدلولٌ يعني جَعْلَ ما هو مَحليٌّ عالَميًّا، أو الانتقالَ مِن المحلية إلى العالَميَّة، فهل هناك لغةٌ انتقلَت من المحليَّة إلى العالَميَّة، فتجاوزت نطاقَها الجغرافي إلى العالمي؟

إن الأمر يتعلَّق بكل بساطةٍ باللغة الإنجليزية التي تمكَّنَت مِن الانتشار عالَميًّا، وتضاعَفَ استعمالُها تماشيًا مع الهَيْمَنة الإعلامية والاقتصادية الأمريكيَّة على العالم، وزاد استعمالَها الشابكُ الذي اتَّسع نطاقُ استخدامه في جميع مناحي الحياة، وبذلك غزَتِ الكلماتُ والمصطلحات الإنجليزيةُ العالَم، ولم تسلَمْ حتى لغات الأمم التي تعتبر نفسَها عريقةً وقوية؛ مثل الصين والألمان والروس والفَرَنسيين.

ويُجمِعُ الدارسون أن اللغةَ الإنجليزية هي اللغةُ العالَميَّة الأولى، بصرفِ النظر عن عدد المُتحدِّثين بها وتوزيعهم الجغرافي، حتى إن كثيرًا مِن الآراء نظرَتْ إلى اللغة الإنجليزية باعتبارها اللغة المعياريَّة العالَميَّة[١٨٤].

ومِن الشواهد التي تؤكد انتشار الإنجليزية نذكر:

1–شعور العديد مِن الأمم بخطرِ تغَلْغُل الإنجليزية في كِياناتِها؛ ففَرَنسا دَعَت – على لسان رئيسِها الأسبق جاك شيراك – لإقامةِ تحالفٍ بين الدول التي تعتمد اللغات ذات الأصل اللاتيني، مِن أجل التصدِّي للهَيْمنة الإنجليزيَّة.

2–إن الإنجليزية أصبحَتْ لغةَ الشابك) الإنترنت (بلا منازع، فقد بلغت نسبتها ٧٧ % على صفحاته، والنسبة الباقية تتنازعها اللغات العالَميَّة الأخرى.

[١٨٤] مجلة المعرفة، العدد ٤٣٢، تشرين الأول ١٩٩٩.

3–صارَتِ الإنجليزيةُ اللغةَ الثانية في كل دولةٍ مِن دول العالم بعد اللغة الأم لهذا البلد، لا سيما في البلدان العربية والإسلامية.

نصلُ بعد هذا العرضِ إلى طرح السؤال:

هل العربية قادرةٌ على المواجهة؟

هل العربية قادرةٌ على المجابهةِ والمحافظة على حاضرها وصناعة مستقبلها؟

مما لا شكَّ فيه أن الإجابةَ عن هذا السؤال تجرُّنا إلى الحديث عن مُقوِّمات اللغة العربية التي تسمَحُ لها بالبقاء وتُؤهِّلها للمقاومة، وتُكسِبها القدرةَ بأن تقول كلمتَها في الزمن المعلوم لُغويًّا.

جرَتِ العادةُ أن نستعرضَ في مثل هذه المواضيع أمجادَ اللغة العربية وتاريخَها العريق ودورَها الحضاري، وارتباطَها بالسماء المُقدَّسة، وإن في ذلك كلِّه هيبةَ اللغة ووقارَها وعزَّةً لثقافتها ولأهلها، لكنه لا يَفِي بالغرض الذي نحن بصدد الحديث فيه؛ "ذلك أن تخطيط المستقبل قياسًا على الماضي لا يجوزُ إلا في حالات الثبات والاطراد، أما في حالات التحوُّل، فبحكم الغرض نفسه – والغرض هنا أن تحول – فمحالٌ لغدِنا أن يحاكي أمسنا[١٨٥]."

لا بد أن نفهَمَ بأننا نتحوَّل، وكل أحوالنا في تغيُّر، والصوابُ أن ننظر إلى حالة التحوُّل من الداخل، وهذا ما سلكه أجدادُنا في الزمن الأوَّل، عندما تعاطوا مع اللغة مِن الداخل فاستجابَتِ اللغةُ لِما يُرَاد منها، واستوعَبَتِ الثقافاتِ والعلومَ، وتجاوب أبناؤها مع معطيات الزمن ومتطلباته ومتغيراته، ثم جاء على أمَّتِنا زمنٌ

[١٨٥] زكي نجيب محمود، تحديد الفكر العربي، دار الشروق ص ٢٢٧.

تراجَعَ فيه صوتها، وتدنَّى مستوى ثقافتها ومخزونها المعرفي، فتوقَّفت لغتها عن النمو والتطور وغزَتْها اللغات الأجنبية.

إن اللغة العربية تستطيعُ الصمود وتقدِرُ على المجابَهةِ؛ نظرًا لمُكوِّناتِها الداخلية، فقد عُرِفَت بسَعَتِها وثرائها وطواعيتها، وما تملك من وسائل النمو والتطور بالاشتقاق والمجاز والقياس والنحت والتعريب وأشباهها.

إن اللغة العربية بريئةٌ مِن تهمة العجز، فإن فيها مِن خصائص اللغة العلمية ومُقوِّماتِها ما يكفي، والذين يتَّهِمونَها بالعجز عن مجاراةِ التطورات الحضارية العلمية، إنما يعترفون بعجزهم نتيجةً لبيئات الجهل والتجهيل والكسل العقلي والانهزامية التي نشأنا عليها من عهود الظلمة والقهر خلال السيطرة الاستعمارية الغربية، وما تزال فاعلةً فينا بقوة لا نَدْرِيها، ولم نفكر من أجل تغييرها، وبذلك أصبحنا نعيش استمراريةَ عصر الانحطاط.

إن المتأمِّل لواقعنا يُدرِك أن عقاربَ ساعة التخلف ستُواصِل زحفها، ولا شك أننا سنبقى إلى مدَّة طويلة نستورد التسميات ومعها الأسماء ما دمنا عاجزين عن الإنتاج ونعيش تشتتًا عربيًّا وتجزئة للمواقف.

والأمر ليس قدرًا محتومًا، ولا قضاءً مفروضًا، فيمكن عن طريق الاتصال العلمي، والتحويل التكنولوجي، والاستعداد المسبق، والأخذ بمتطلبات الحداثة والعصرنة، واستغلال المناهج العلمية، والتزام الموضوعية في طرح المسألة بعيدًا عن العاطفة المفرطة – أن نُحقِّق قَفزةً نوعية نحوَ استخدام اللغة العربية في تسيير شؤون الأمة وتعليم العلوم لأبنائها.

ما يشغَلُنا اليوم:

كيف نجعلُ العربيةَ لغةً مريحة للاستعمال العلمي والفني، والاستعمال العلمي واليومي؟

وكيف يغدو الناسُ قادرين على استعمالِ اللغة في راحة واطمئنان؟

إن الأمر يتطلب البَدْءَ في مشروع نَهْضَوي يُوحِّد الأمة، يستدعي:

1-الخروج مِن الازدواجية الغبيَّة، عن طريق تعميم اللغة الفصيحة وتفصيح العامية.

2-رفع درجة الثقة والاعتزاز بالشخصية الوطنية والقومية، والغَيْرة على الهُوِيَّة لدى أبناء الوطن حتى لا ينبهرَ أبناؤنا بالآخر.

3-اتِّخاذ اللغة العربية وسيلةً للابتكار وتعليم العلوم، فالتحدِّي الذي يواجه العربية هو استتباب العلم وتوطين التكنولوجيا عربيًّا، واللغة هي المهد الذي ينبت فيه العلم، وأي لغة لا تنتج العلم فهي عقيمةٌ.

4-انتهاج سياسة التعريب المستمرِّ مِن أجل نقل المعرفة لا على مستوى المدارس والجامعات فحسب، بل على المستوى الجماهيري باستغلال كل الوسائل الممكنة من إعلام مكتوب ومرئي ومسموع، وتوظيف المؤسسات الوطنية والجمعيات والأحزاب السياسية؛ ذلك أن التعريب مطلبٌ وطني؛ إذ لا يمكن إطلاقًا تخطيط تنمية بلغة الأجنبي، والتاريخ يؤكد لنا أن الدول التي استعملت لغات الغير في المجال التنموي باءت بالفشل.

ختاماً

وقبل أن تغلق الكتاب؛ بناءً على ما سطرناه من خلال الصفحات السابقة يمكننا أن نخلص :

أن مستقبل اللغة العربية رهين بأهلها

إنَّ استشراف المستقبل رهينٌ بمعرفة الماضي والحاضر، والحديث عن مستقبلِ موضوعٍ ما هو مُتضمِّن بشكلٍ أو بآخر حديثًا عن ماضي ذلك الموضوع وحاضره.

والدراسة المستقبليَّة لموضوعٍ ما تظلُّ دائمًا وأبدًا نسبيَّةً ومتأرجحة بين إمكانيَّات الوقوع، وإمكانيَّات اللَّاوقوع، مستحضرة في أُفُقها الاستشرافيِّ السيناريوهات المُمكنةَ في حدود الإمكانات الإنسانيَّة.

وليس همِّي في هذا البحث استقصاء كل الأسباب والمسائل المتعلقة بمستقبل اللُّغة العربيَّة؛ وإنَّما الاقتصار على جانبٍ واحد، مرتبطٍ باللُّغة ارتباطًا تلازميًّا، لا ينفكُّ عنها ولا تنفكُّ عنه، والإشارة بإيجاز وفي لمحاتٍ خاطفةٍ للجوانب الأخرى المتعلِّقة بمستقبل اللُّغة العربيَّة، إذًا فهذه دراسة جزئيَّة لموضوعٍ كبيرٍ، لا تهدف إلى الإحاطة الكُلِّية الشاملة.

وعلى هذا، فمستقبل اللُّغات رهينٌ بما عاشته تلك اللُّغات في زمنها الماضي، وما تعيشه في زمنها الحاضر، وتبقى الدِّراسة المستقبليَّة لمصيرِ لغةٍ ما احتماليَّةً ونسبيَّة، مهما حاول الباحث جاهدًا تحرِّيَ الضوابط العلميَّة وسأحاول في هذه المقالة مقاربة بعض الاحتمالات الواردة فيما يخص مستقبل اللُّغة العربيَّة.

- مستقبل اللُّغة العربيَّة رهين بمستقبل متكلميها

كثيرًا ما نقرأ ونسمع عند المسلمين أنَّ اللُّغة العربيَّة ستبقى خالدة ومحفوظة؛ لارتباطها بالقرآن الكريم،

ويستدلون على هذا بالآية الكريمة :﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وحديثهم هذا هو حديث عن مستقبل اللُّغة العربيَّة، وهم – وباعتمادهم على الآية السالفة – يقررون حقيقةً مفادُها: أن اللُّغة العربيَّة ستبقى ما بقي الإنسان، وهذا البقاء ضامنه الله تعالى .

وسأحاول أن أُناقش هنا هذا الرأي بإيجاز اعتمادًا على فرضيتين:

تفترض الأولى: أن هذا الرأي صحيح.

وتفترض الثانية: أن هذا الرأي غير صحيح.

•الفرضية الأولى:

حتى وإن سلَّمنا مع القائلين بأنَّ الله قد نصَّ في القرآن الكريم على أن اللُّغة العربيَّة محفوظة، وستبقى ما بقي إنس على وجه هذه الأرض، فلا نعرف حقيقةً كيف هو هذا البقاء؟ وإن عُدنا للقرآن الكريم، لا نجد آيةً صريحة تخبرنا كيف ستكون اللُّغة العربيَّة في المستقبل؟

وعلى هذا، وانطلاقًا من فرضيتنا الأولى، يُمكن القول: إنَّ اللُّغة العربيَّة ستكون حاضرة في المستقبل؛ لكنَّنا لا نعلم بأيِّ شكلٍ من الأشكال ستكون، ولو تركنا المجال للعقل ليرصد لنا الإمكانات المُمكنة منطقيًّا، مع استحضارنا للوضعيَّة التي عاشتها اللُّغة العربيَّة وتعيشها الآن، لأعطانا عدَّة احتمالات، من بينها: أن اللُّغة العربيَّة يمكن أن تكون حاضرةً بقوَّة في المستقبل، أو أن تكون حاضرةً بالشكل الذي هي عليه الآن، أو أن تبقى فقط لغةً دينيَّةً يمارسها المسلم في العبادات والممارسات الدينيَّة لا غير؛ أي: ستُصبح لغةً طقوسيةً، وليست لغةً حياتيَّةً، هذه الاحتمالات كلُّها قائمة بذاتها، حتى وإن أقررنا ببقاء اللُّغة العربيَّة.

•الفرضية الثانية:

الآية التي استدلَّ بها القائلون بأن اللُّغة العربيَّة ستبقى إلى الأبد، لو أمعنَّا النظر فيها ورجعنا للمفسِّرين، لوجدنا أنَّها لا تنصُّ بالضرورة على بقاء اللُّغة العربيَّة؛ فخلاصة ما جاء في التفاسير: أن هذه الآية تدلُّ على إقرارٍ من الله تعالى على أنَّه هو الذي أنزل الذكر – ويُقصد بالذِّكر هنا عند جلِّ المُفسِّرين القرآنُ – واللهُ هو الحافظ له من التغيير والتبديل، وقيل أيضًا بأنَّ ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾]الحجر: ٩]؛ أي: في حال إنزاله وبعد إنزاله؛ ففي حال إنزاله حافظون له من استراق كلِّ شيطانٍ رجيم، وبعد إنزاله أودعه الله في قلب رسوله واستودعه فيه ثمَّ في قلوب أمَّته، وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها، والزيادة والنقص، وحفظ معانيه من التبديل، وأرجع بعض المفسرين الضمير في قوله تعالى :﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] إلى النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم من أن يُكاد أو يُقتل، لكنَّ أغلب المُفسِّرين يُرجِّحون المعنى الأول١٨٦.

2–مستقبل اللُّغة العربيَّة رهينٌ بمستقبل مُتكلِّميها:

إنَّ اللُّغة لا تعدو أن تكون وعاءً ووسيلةً من وسائل الناس في التخاطب والتواصل، وهي – مثلها مثل باقي الكائنات الحيَّة – تعيش وتزدهر إذا توافرت شروط ازدهارها، وتموت وتضمحل إذا توافرت شروط فنائها، واللُّغة – أيُّ لغةٍ – لا توجد في هذا العالم دون مُتكلِّمين بها، فاللُّغة كما يعبِّر عن ذلك الباحثون: هي ظاهرة إنسانيَّة اجتماعيَّة، لا يمكن دراستها أو استشراف مستقبلها دون استحضار البُعدين الأساسين المُهيكلين لها، وهما: البُعد الإنساني، والبُعد المجتمعيُّ الحياتي، وهذان البُعدان لا ينفصل بعضهما عن

١٨٦ انظر: تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، هذَّبه وحقَّقه، وضبط نصَّه وعلَّق عليه، الدكتور بشار عواد معروف، والدكتور عصام فارس الحرستاني، مج٤، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٤، ص ٤٦٩، ٤٧٠، و تفسير القرآن الكريم؛ لابن كثير، ت:سامي بن محمد السلامة، ج٤، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٩٩٩، ص ٥٢٧، وتيسير الكريم الرحمن، في تفسير كلام المنان؛ تأليف: عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ت: عبدالرحمن بن معلى اللويحق، دار السلام للنشر والتوزيع، ط٢(٢٠٠٢) ٤٩٨، والجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمنه من السنة وآي القرآن؛ تأليف القرطبي، ت: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ج١٢، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٦، ص١٨٢،١٨١،١٨٠.

بعض، واللُّغة ترتبط بهما ترابطًا تلازميًّا، لا تنفكُّ عنهما ولا ينفكَّان عنها، إذًا فالإنسان أو مُتكلِّم اللُّغة هو أهم عنصر في تحديد معالم مستقبل لغةٍ ما، ولنا في التاريخ أسوةٌ حسنةٌ، فعندما كان أهل اللُّغة العربيَّة أسيادًا في العلوم، والفنون، والآداب، والعمران، والزراعة، والصناعة، والتجارة – بمعنى: أنَّ اللُّغة ارتبطت بقوَّة المسلمين بكلِّ ما تحمله القوَّة من عناصرَ عسكرية، واجتماعية، ودينية، وعلمية، وثقافية ١٨٧– كانت لغتهم سيِّدة على اللُّغات الأخرى، وما كان على الآخر إلا أن يتعلَّم اللُّغة العربيَّة؛ لأنَّها كانت السبيل الوحيد للارتقاء والسُّمو، واكتساب العلم والمعرفة، ولنستمع إلى ما قاله القس "Alvaro" مُتحدِّثًا عن فترةٍ سادت فيها اللُّغة العربيَّة في أوربا، يقول: "إنَّ كلَّ الموهوبين من شُبَّان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها، ويُؤمنون بها، ويقبلون عليها في نهم، وهم يُنفقون أموالًا طائلةً في جمع كتبها، ويُصرِّحون في كلِّ مكان بأنَّ هذه الآداب حقيقةٌ بالإعجاب، فإذا حدَّثتهم عن كتب النصرانية، أجابوك في ازدراء بأنَّها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم، يا للألم! لقد أُنسيَ النصارى حتى لغتهم، فلا تكاد تجد واحدًا منهم بين الألف يستطيع أن يكتب إلى صاحبٍ له كِتابًا سليمًا من الخطأ، فأمَّا عن الكتابة في اللُّغة العربيَّة...

فإنَّك تجد فيهم عددًا عظيمًا يُجيدونها في أسلوبٍ مُنمَّق، بل هم يَنظِمون من الشِّعر العربي ما يفوق شِعر العرب أنفسهم فنًّا وجمالًا١٨٨"، هذا الكلام نفسه ينطبق اليوم على العرب، فقد تركوا لغتهم، واهتموا بلغة مُستعمريهم، وهذه الحالةُ التي يعيشها العرب اليوم وتعيشها لغتهم يمكن إجمالها في ما قاله ابن حزم قبل

---

١٨٧ وليد أحمد العناتي، اللغة والعولمة، لغة عالمية أم لغات متعددة؟ وقائع مؤتمر مستقبل اللغات في عصر العولمة، جامعة الملك خالد بن عبدالعزيز، أبها السعودية ٢٠٠٦، ص ١٦.

١٨٨ ليفي بروفينسال، الحضارة العربية في إسبانيا، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي، ط٣، دار المعارف، ١٩٩٤، ص ١٠١.

عشرة قرون تقريبًا، فقد قال: "إن اللُّغة يسقط أكثرها ويبطل بسقوط دولة أهلها، ودخول غيرهم عليهم في مساكنهم، أو بنقلهم عن ديارهم واختلاطهم بغيرهم، فإنَّما يُقيد لغةَ الأمَّة وعلومها وأخبارها قوَّةُ دولتها ونشاط أهلها وفراغهم، وأمَّا مَن تلفت دولتهم، وغلب عليهم عدوهم، واشتغلوا بالخوف، والحاجة، والذُّل، وخدمة أعدائهم، فمضمون منهم موت الخواطر، وربَّما كان ذلك سببًا لذهاب لغتهم، ونسيان أنسابهم وأخبارهم، وبيود علومهم، هذا موجودٌ بالمشاهدة، ومعلومٌ بالعقل ضرورة[١٨٩]"، وقال ابن خلدون في الصَّدَد نفسه: "إن غلبة اللغة بغلبة أهلها، وإن منزلتها بين اللُّغات صورة لمنزلة دولتها بين الأمم[١٩٠]"

وبناءً على هذا يمكن القول: إنَّ أهل اللغة هم المسؤولون بالدرجة الأولى عن حالة ووضعيَّة لغتهم، فإن كانوا مُستقلِّين أقوياء، كانت لغتهم مُستقلَّة قويَّة، وإن كانوا تابعين مُنهزمين كانت لغتهم لغةً ضعيفةً، فقيمةُ اللُّغة من قيمةِ أهلها، وكرامتها من كرامتهم، وقوَّتُها من قوتهم، ولا يمكن أبدًا فصل اللُّغة عن مُنتجيها، فما يعتري أهلَ اللُّغة يعتري اللُّغةَ بالضرورة.

فالمتحكِّم الأوَّل والأخير في مستقبل اللغة هو أهلها، واللغة – أيُّ لغةٍ – لا تعدو أن تكون سوى انعكاسٍ لوضعيَّة أهله؛ فإن كان أهلها مسيطرين على العالم، سيطرَت لغتهم على العالم، وإن كان أهلها مُنعزلين عن العالم، كانت لغتهم مُنعزلة؛ لهذا يجب على دُعاة التجديد والتيسير أن يُتعبوا أنفسهم في شيءٍ آخر أهم، فليس العيب في الإعراب أو نون النسوة أو اللغة، بل العيب فينا.

[١٨٩] ابن حزم الأندلسي، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق أحمد محمد شاكر، قدم له إحسان عباس، ج١، منشورات دار الآفاق الجديدة، ص ٣٢.
[١٩٠] ابن خلدون، المقدمة، طبعة دار الفكر، بيروت ١٩٨١م، ص ٧٦٤.

وأختم بأبياتٍ قالها الشافعي يردُّ على مَن ينسب ضعفه لشيء آخر، يقول الشافعي رحمه الله:

نَعِيبُ زَمَانَنَا وَالعَيْبُ فِينَا

وما لزمانِنا عيبٌ سِوَانَا

ونهجو ذا الزمانَ بغيرِ ذنبٍ

ولو نطق الزمانُ لنا هَجَانَا

وليسَ الذئبُ يأكلُ لحمَ ذئبٍ

ويأكلُ بعضُنا بعضًا عيانَا

والحمد لله رب العالمين.

العربية تتكلم بلسانها:

ضَاعَتْ مَعَالِمُ تَأْرِيخِي وَأَمْجَادِي لَمَّا تَخَاذَلَ أَبْنَائِي وَأَحْفَادِي

وَاسْتَبْدَلُوا بِي لِسَانًا لَسْتُ أَعْرِفُهُ وَلَيْسَ فِيمَا اسْتَعَاضُوا رَوْنَقُ الضَّادِ

إِنِّي أَكَادُ أَشُقُّ الْكَوْنَ نَادِبَةً وَيْلِي عَلَى مَنْ رَعَانِي مُنْذُ مِيلاَدِي

وَيْلِي عَلَى عَهْدِ عِزٍّ يَوْمَ كُنْتُ بِهِ تَاجَ الْفَصَاحَةِ فِي هَامَاتِ أَوْلاَدِي

كَمْ فَاخَرَتْ بِي فُحُولٌ يَوْمَ أَنْ عُقِدَتْ بِالْمَجْدِ أَلْوِيَةٌ مِنْ وَحْيِ إِنْشَادِي

وَكَمْ تَسَامَى فَصِيحٌ فِي عَشِيرَتِهِ حَتَّى غَدَا سَيِّدًا لِلْحَيِّ وَالنَّادِي

هَذَا امْرُؤُ الْقَيْسِ وَالْبَكْرِيُّ بِي حُفِظَتْ أَشْعَارُهُمْ وَتَنَامَتْ مُنْذُ آمَادِ

لَوْلاَيَ مَا عَرَفُوا قُسَّ بْنَ سَاعِدَةٍ وَلاَ رَوَوْا عَنْ عُكَاظٍ شِعْرَ رُوَّادِي

وَكَمْ هَزَزْتُ قُلُوبًا أُطْرِبَتْ فَغَدَتْ سَكْرَى بِنَغْمَةِ لَفْظِي مَا شَدَا الشَّادِي
أَطْرَبْتُ حَتَّى صِعَابَ الْعِيرِ فَانْطَلَقَتْ تَهُزُّهَا فِي الصَّحَارِي رَنَّةُ الْحَادِي
حَتَّى امْتَلأْتُ شَبَابًا وَاسْتَوَيْتُ عَلَى سُوقِي شَرُفْتُ بِوَحْيِ الْخَالِقِ الْهَادِي
فَكُنْتُ نُورًا عَلَى نُورٍ وَخَلَّدَنِي آيُ الْكِتَابِ فَلاَ أَبْلَى بِتَرْدَادِي

• • •

مَا بَالُ قَوْمِي نَسُوا وُدِّي وَمَا حَفِظُوا عَهْدِي وَمَا سَمِعُوا نُصْحِي وَإِرْشَادِي؟!
أَغَرَّهُمْ مَا افْتَرَاهُ النَّاعِبُونَ بِلاَ عَقْلٍ وَمَا قَالَ أَعْدَائِي وَحُسَّادِي؟!
أَصَدَّقُوا مَا يُشِيعُ الْمُرْجِفُونَ وَهُمْ لاَ يَرْتَجُونَ سِوَى وَأْدِي وَإِبْعَادِي؟!
ثَارُوا عَلَى أَدَبِي وَاسْتَهْجَنُوهُ وَمَا جَاؤُوا بِغَيْرِ هَجِينٍ قُبْحُهُ بَادِي
فَالشِّعْرُ يَهْذِي هُذَاءَ السُّكْرِ لاَ طَرَبٌ فِيهِ وَلاَ لِلْمَعَانِي مِنْهُ مِنْ زَادِ
شِعْرُ (الْحَدَاثَةِ) هَلاَّ مِنْهُ أُغْنِيَةٌ يَشْدُو بِهَا قَرَوِيٌّ يَحْرُثُ الْوَادِي!
تَهَتُّكٌ كُلُّ مَا يَدْعُونَهُ (أَدَبًا) مِدَادُهُ رَاعِفٌ مِنْ كَفِّ أَحْقَادِ
كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى عَصْرٍ تَقَرُّ بِهِ عَيْنِي وَأُخْبِي بِهِ مَجْدِي وَأَعْيَادِي
إِنِّي هُنَا لاَ أُطِيقُ الْعَيْشَ يَلْمِزُنِي قَوْمٌ وَقَدْ جَهَّزُوا رَمْسِي وَأَعْوَادِي
إِنِّي وَإِنْ هَانَ قَوْمِي وَارْتَضَوْا نُزُلاً دُونَ الثَّرَى لَمْ يَزَلْ فِي الْمَجْدِ مِيعَادِي
وَلاَ تَزَالُ كُنُوزِي فِي مَخَابِئِهَا يَفْنَى الزَّمَانُ وَتَبْقَى رَوْعَةُ الضَّادِ
وَقَدْ كَفَانِيَ أَنِّي صِرْتُ مُعْجِزَةً تَسْمُو بِنُورِ الْهُدَى وَالْوَحْيِ أَطْوَادِي

وَلاَ يَزَالُ كِتَابُ اللَّهِ تَذْكِرَةً لَوْلاَهُ لاَنْتَزَعَ الأَعْدَاءُ أَوْتَادِي

وَسَوْفَ أَحْيَا بِهِ فِي الْكَوْنِ خَالِدَةً كَأَنَّنِي فِي صَفَائِي يَوْمَ مِيلاَدِي

الخاتمة

وبحمد الباري سبحانه وتعالي وفضل منه ورحمة نضع قطراتنا الأخيرة بعد رحله الغوص في مواضيع هذا الكتاب وأتمني أن أكون موفقا في سردي لعناصره سردا لا ملل فيه ولا تقصير وقد كانت رحله سريعة لتسليط الضوء على كل ما يتعلق بلغتنا العريقة (اللغة العربية) فلا ندعي الكمال فيه ولكن عُذِرنا انا بذلنا فيه قصار جهدنا

فإن أصبنا فذاك المراد وإن أخطأنا فلنا شرف المحاولة والتعلم ولا نزيد على ما قال العماد الأصفهاني:

*إني رأيت أنه لا يكتب إنسان في يومه إلا قال في غده:

> لو غير هذا لكان أحسن.

> لو زيد هذا لكان يستحسن.

> لو قدم هذا لكان أفضل.

> لو ترك هذا مكانه لكان أجمل.

*وهذا من أعظم العبر، وهو دليل لاستيلاء النقص على جميع ما كتب البشر.

والله ولي التوفيق

المراجع والمصادر

•القرآن الكريم.

•الجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمنه من السنة وآي القرآن، تأليف القرطبي، ت: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، ج١٢، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠٦.

•تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، هذبه وحقَّقه وضبط نصَّه وعلَّق عليه: الدكتور بشار عواد معروف، والدكتور عصام فارس الحرستاني، مج٤، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٤.

•تفسير القرآن الكريم، لابن كثير، ت: سامي بن محمد السلامة، ج٤، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٩٩٩.

•تيسير الكريم الرحمن، في تفسير كلام المنَّان، تأليف: عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ت: عبدالرحمن بن معلى اللويحق، دار السلام للنشر والتوزيع، ط٢ (٢٠٠٢.(

•ابن حزم الأندلسي، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق أحمد محمد شاكر، قدم له إحسان عباس، ج١، منشورات دار الآفاق الجديدة.

•ابن خلدون، المقدمة، طبعة دار الفكر، بيروت ١٩٨١م.

•عبدالعلي الودغيري، اللُّغة العربيَّة في مراحل الضعف والتبعية، دار العربية للعلوم ناشرون بيروت ٢٠١٣.

•عبدالقادر الفاسي الفهري، اللغة والبيئة، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، توزيع سبريس، ٢٠٠٣.

•تراو توكودا، الانطلاق من الصفر، لا يوجد حلم لا يمكن تحقيقه: ترجمة الدكتور ماهر الشربيني، مراجعة الدكتور عبدالغفور إبراهيم، دار زهران للنشر والتوزيع، ٢٠١٠.

•ليفي بروفينسال، الحضارة العربية في إسبانيا، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكي، ط٣، دار المعارف، ١٩٩٤.

•مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبدالصبور شاهين، بإشراف ندوة مالك بن نبي، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر بدمشق.

•مالك بن نبي، من أجل التغيير، ترجمة عبدالصبور شاهين، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر بدمشق، دار الفكر المعاصر ببيروت، ١٩٩٥.

•المهدي المنجرة، عولمة العولمة من أجل التنوع الحضاري، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء ط٢، ٢٠١١.

•ديوان الشافعي المسمى: الجوهر النفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس، إعداد وتعليق وتقديم: محمد إبراهيم سليم، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير.

•عبدالعلي الودغيري، مستقبل العربية في أيدي أصحابها، مجلة إسلام اليوم، العدد ٣٣ الرباط إيسيسكو ٢٠١٦.

•فؤاد بوعلي، النقاش اللغوي والتعديل الدستوري في المغرب، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، معهد الدوحة، سلسلة دراسات وأوراق بحثية، ٢٠١٢.

•وليد أحمد العناتي، اللغة والعولمة، لغة عالمية أم لغات متعددة؟ وقائع مؤتمر مستقبل اللغات في عصر العولمة جامعة الملك خالد بن عبدالعزيز، أبها السعودية ٢٠٠٦.

١ – آل القاسمي ونبوغهم في العلم والتحصيل، للشيخ محمد بن ناصر العجمي، بيروت – دار البشائر الإسلامية، ط١، ١٤٢٠هـ–١٩٩٩م.

٢ – أساس البلاغة، لمحمود بن عمر الزمخشري، تحقيق عبد الرحيم محمود، بيروت – دار المعرفة، ١٤٠٢هـ–١٩٨٢م.

٣ – بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس، ليوسف بن عبد الله بن عبد البر القرطبي (ت٤٦٣هـ) تحقيق محمد مرسي الخولي، بيروت – دار الكتب العلمية، مجلدان، ط٢، ١٩٨١م.

٤ – بهجة النفوس في تجويد كلام القدوس، محمد مأمون كاتبي، الكويت – وزارة الأوقاف.

٥ – البيان النبوي مدخل ونصوص، د.عدنان زرزور، مكتبة دار الفتح بدمشق، ط١، ١٣٩٣هـ.

٦ – البيان والتبيين، لعمرو بن بحر الجاحظ، (ت٢٥٥هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، دمشق – دار الفكر.

٧ – تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي.

٨ – جهود المالقي الصوتية في كتابه الدر النثير، محمد حسان الطيان، أطروحة أعدت لنيل درجة الدكتوراه عام ١٩٩٤م وهي قيد الطبع.

٩ – حجة القراءات، لابن زنجلة، تحقيق الأستاذ سعيد الأفغاني، بيروت – دار الرسالة.

١٠ – ديوان العباس بن الأحنف، تحقيق د.عاتكة الخزرجي، دار الكتب المصرية.

١١ – زهر الآداب وثمر الألباب، للحصري، تحقيق د.زكي مبارك، بيروت – دار الجيل، ط٤.

١٢ – العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت – دار الجيل، جزءان.

١٣ – الكامل في اللغة والأدب، لأبي العباس بن يزيد الأزدي المبرد (ت٢٨٥هـ)، تحقيق د.محمد الدالي، بيروت – دار الرسالة، ٤ مجلدات.

١٤ – الكفاف، للأستاذ يوسف الصيداوي، دمشق – دار الفكر، ١٩٩٩م.

١٥ – كيف تغدو فصيحًا عفَّ اللسان، د.محمد حسان الطيان، بيروت – دار البشائر الإسلامية، ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

١٦ – مبادئ تعلم وتعليم اللغة، دوجلاس براون، ترجمة د.إبراهيم القعيد ود.عبيد الشمري، مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

١٧ – المتنبي، محمود محمد شاكر، جدة – دار المدني، مصر – مكتبة الخانجي، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.

١٨ – محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، لحسين بن محمد الراغب الأصبهاني، بيروت – دار مكتبة الحياة، جزءان.

١٩ – معجم الأدباء، لياقوت الحموي، بيروت – دار المستشرقين، ٢٠ جزءًا.

٢٠ – مقدمة ابن خلدون، تحقيق د.علي عبد الواحد وافي، القاهرة – دار نهضة مصر، ط٣.

٢١ – نهج البلاغة، للإمام علي بن أبي طالب، تحقيق مؤسسة نهج البلاغة، إيران، ط٢، ١٤١٦هـ–١٩٩٥م.

وصلي اللهم وسلم وبارك علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم

وعلي الله قصد السبيل

أحمد فتح الله الشيخ

خادم الإسلام

٢٠١٩\٧\١٥م

في الثاني عشر من شهر ذو القعدة للعام الهجري ١٤٤٠ من هجرة المصطفي صلي الله علية وسلم

تم بفضل الله.

نبذة عن المؤلِّف

الإسم: أحمد فتح الله الشيخ

الدولة: مصر_ كفر الشيخ

المؤهل الدراسي:

– طالب في كلية أصول الدين والدعوة بطنطا.

أعمال سابقه:

– رواية أخي.

– كتاب الأنوار البهية بالأخلاق النبوية.

دار
قصص وحكايات
للنشر
الإلكتروني